

تَعَلَّمُ الطِّيُورُ، مُنْذُ صِغَرِهَا، أَيَّنَ سَتُهَاجِرُ

رواية قصيرة



بِلال عِلاء

تَعَلَّمُ الطِّيُورُ، مُنْذُ
صِغَرِهَا، أَيْنَ سَتَاجِرُ

بِلَالِ عِلَاءِ

تعلم الطيور، منذ
صغرها، أين ستهاجر
بلال علاء

٢٠٢٠

صورة الغلاف: محمد أنور

منذ أيام يفكر أنه لا بد أن يحسم أمره، ولكن شعورًا عميقًا بعدم قدرته على تحمل أي حدث درامي جديد في حياته، حافظ على توتره وارتبكه دون قدرة على الحسم. هذا الأسبوع الرابع تقريبًا منذ عودته للقاء غادة، خطيبته السابقة، الخامس على آخر مرة تحدث مع والده، الثامن على رسالة مديره، الحادي عشر على انفصاله عن غادة، وربما كما يعلم الجميع، الثامن عشر على الحدث الكبير.

منذ ما يقرب من شهرين، في نهار صيفي شديد الحرارة، بمقهى شبه فارغ، أخبرته غادة برغبتها في الانفصال. كانت الأسابيع الأخيرة أكثر فترات علاقتهما فتورًا، دون معارك، ينجران بعيدًا عن بعضهما، بوعي تام، وبدون قدرة، أو رغبة كافية، للمقاومة. أنهكتهما المعارك الطويلة، وربما هذا ما أخرج بعض الشيء لحظة المصارحة، علم كل منها أنها لا بد آتية بعدما حدث، وظلا يراكمآن قوتهما لخوضها.

أرخت غادة جناحيها بجوار مقعدها، تدلى شعرها الأسود الطويل مرتخيًا على الجناحين كأنه اكتسب، أخيرًا، صديقًا جديدًا. "أطلبلك حاجة؟"، يعلم أنها ستطلب قهوة تركي زيادة، أجابته بتوقعه، وسار

هو لجلب القهوة لها والشاي له. فكر وهو يقف أمام النادل أن هذه اللحظات ربما تكون الأخيرة لعلاقتهما، تلكاً وهو ينظر لقائمة المقهى، حتى سأله النادل عن طلبه فأجاب. وقف منتظراً تحضير الطلب، وهو يرتب كلماته في عقله مرة أخيرة قبل أن يلقيها إليها. أخذ القهوة والشاي إلى طاولتهما، وجلس في مواجهتها، وليس بجوار المقعد القريب منها كما اعتادا. فكرت أنه إذن مستعد للمواجهة.

منذ سبعة أسابيع لم يتبادلا سوى الحديث الرتيب عن أخبار أيامهما، بحذر من الطرفين عن الغوص أبعد من ذلك، حتى أنهما قليلاً ما تحدثا عن الحدث الكبير نفسه. كانت ما زالت ممتنة له على وقوفه بجوارها في مرضها. ولم ترد مواجهته بعد أن استردت هي عافيتها، وغاص هو في اكتئابه الدوري الذي ضاعفه الحدث وتبعاته. تقابلا مرة واحدة خلال هذه الأسابيع، كان اللقاء ثقيلاً عليه، وخاف أن تستعجل هي المواجهة، لكنها كانت أرأف به من ذلك. وربما ما شجعه للقاءها أخيراً أنه أحب أن يراها بجناحيها الجديدين. كانت من المحظوظين الذين نبتت لهم أجنحة. والده حينها كان لا يزال مريضاً، وربما أسهم ذلك أيضاً في تأجيلها للمواجهة. من كان يعلم أن كل ما حدث كان ممكناً؟

في أيامهما الأولى، تبادلوا السؤال المعتاد عن أي قوة خارقة يحب كل منهما امتلاكها. هو، كغالبية الذكور، قال إنه يحب أن يكون غير مرئي، ليتلصص على السيدات في بيوتهن، بينما أجابت أنها تحب أن تكون لها القدرة على الطيران، تنتقل بين البلدان كما تريد، وتنام كل يوم في بلد جديد. أحدهما على الأقل تحقق حلمه.

أخذت غادة تنظر إلى قهوتها منهمة، كأنها تبحث في داخلها عن شيء ما عزيز لديها، بينما أخذ هو يحرك الملعقة داخل الشاي

في دوائر بلا نهاية، كأنه يتمنى أن يتوه داخلها. سمعها تأخذ شهيقًا
طويلاً، ثم أتاه صوتها:

- محمد؟

توترت موجات الشاي مع صوتها، لكنه حاول الاستمرار في صنعها،
استمرت:

- لازم نتكلم؟

سحب الملعقة من الشاي، نظر في عينيها، أخذ شهيقًا أطول من
شهيقها، ورد:

- هننفضل؟

أربكها بسرعه في المواجهة، فصمتت. دفن رأسه في الطاولة، لا
يصدق أن ذلك يحدث، سمع بكاءها، دمعة واحدة خرجت من عينه
دون أن يرفع رأسه. استمر ذلك بضع دقائق حتى هدأ كليهما. مسح
دمعته قبل أن يرفع رأسه، وحين رفعها بكت مرة أخرى. اختصر
المواجهة، دون حتى أن تبدأ هي في الكلام. راوغ كل منهما طويلاً،
وبدا له أنه لا داعٍ للمراوغة بعدما أصبحت المواجهة محتومة، فحاول
أن يقلل زمنها قدر المستطاع. بعد هدوء طويل، سألته بحنان لم
يستطع النفاذ إلى قلبه:

- هتبقى كويس؟

دفن رأسه في الطاولة مرة أخرى. لن يكون في حالة جيدة، يعلمان
ذلك. حنانها الوقتي لن يشعره بالدفء، وهو يعلم أنها ستنفلت
منه بعد قليل، وسيفقد أحد مصادر طمأنينته القليلة. تذكر جلسته
بجوارها في المستشفى منذ شهور قليلة، عندما ظن أنه سيفقدها
للأبد. كان والدها بجواره يبكي، بينما يضع هو يده على كتفه مطمئنًا

إياه أنهما لن يفقداها أبداً. ها هو يفقدها اليوم. بكى، فبكت، ثم محاولاً تكسير الحزن الذي يغلف لقاءهما، قال لها:

- مكتوب علينا الدراما دائماً

ابتسمت، وانقطع بكاؤه. ظلا جالسين دون كلام. وباتفاق ضمني ناتج عن طول العشرة، قاما مرة واحدة وغادرا المقهى. سارا بجوار بعضهما البعض، صامتين، متباطئين لاقترابهما من بيتهما، حيث تعيش بعيداً عن أهلها، البيت الذي شهد أجمل لحظاتها. حين صارا أمامه أخيراً، نظرت إليه كأنها تحاول احتضانه، فتراجع للوراء بحركة مسرحية. انحنى، رفع قبعة وهمية من فوق رأسه، ولوح بها كأنه يحيى جمهور مسرحية منتهية. حاول أن تكون تلك نهاية اليوم ويذهب كل منها في طريقه، لكنها اقتربت منه بعزيمة واحتضنته طويلاً، وقبلت رأسه، وطارت.

٢

تبدو بعض الطرق واضحة جداً، كأن الحاضر وجد ليستمر، ثم يزيلها الضباب، ويزول لتظهر طرق جديدة، وتزول. لم يغادر منزله طوال أسبوع، لم يحدث عادة منذ لقائهما الأخير، يتصل به يومياً زملاؤه في العمل، جمال وشربيني بالذات، مطمئنين عليه، ومستفسرين عن عدم حضوره، في الأغلب لم يكن يرد عليهم. كان تائهاً في غابة اكتتابه، نائمًا أغلب اليوم، لم يقابل أحداً طيلة الأسبوع. قرر مرتين أنه سيستيقظ ويذهب لعمله ككاتب إعلانات، لكنه في الصباح كان يفقد نفسه في الغابة مرة أخرى، ويحاول بقية اليوم أن يعثر عليها.

في الأسبوع التالي، وبهمة مفاجئة، غادر منزله متوجهاً للعمل. أحسن بتحسن غير مبرر في حالته النفسية، سار للعمل رغم طول الطريق كأنه يحتفي بخروجه من الغابة. قابله الجميع بترحاب زائد،

حتى المدير نفسه، أحمد حربية، لم يسأله عن غيابه. حضر اجتماعًا صباحيًا، وشارك ببعض الأفكار، وبعد انتهاء الاجتماع جلس في مكتبه قليلاً، لعب ماتش فيفا وخسره، ثم خرج للبلكونة لتدخين سيجارة. أتت ندى في إثره وأشعلت سيجارة بدورها، ثم سألته عن صحته. "كنت تعبان شوية الأسبوع اللي فات، بس كويس دلوقتي". سألته عن أخبار غادة خطيبته فراوغ، وتذكر حينها أنه ما زال يلبس دبله خطوبته، المحفور عليها جملة غادة التي اختارتها نصف مباحة "تعلم الطيور منذ صغرها إلى أين ستهاجر". ناسياً وجود ندى تماماً خلع دبلته، وفكر لوهلة أن يقذف بها للشارع، لكنه وضعها في جيبه، ثم انتبه لنظرة ندى المستغربة:

- بيحصل في أحسن العائلات

لم يخبرها أكثر من ذلك. نظرت إليه متعاطفة، ضامة شفيتها، متحازنة:

- أنا موجودة دائماً، لو حابب تتكلم

غادر البلكونة، دخل مكتبه، وضع حاسوبه في حقيبته، ثم خرج من المكتب ولم يعد إليه.

٣

عن طريق معارف مشتركين، عرف ندى قبل أن يعرف غادة. كون تجاهها في لحظة ما مشاعر قوية، سرعان ما جرفتها غادة. لكنهما ظلا، لفترة، صديقين مقربين لدرجة مربةكة لشخصين منغمسين في علاقتهما جديتين، قبل أن يصبحا زملاء عمل بتاريخ شخصي مشترك مفتوح على احتمالية إعادة توطيد الصداقة. كلمته ندى في المساء متسائلة إن كانت أزعجته في شيء، نفى: "أنا بس مش في أفضل حالاتي". سألته

عن إمكانية أن تأتي لبيته لتطمئن عليه، أخبرها ألا داعي ذلك، أصرت وجاءت.

فتحت شبك الصالة بمجرد دخولها، ”مش كفاية كآبة يا بني.“
”تشرني حاجة؟“، ”تقصد شاي طبعًا“، أجابت مبتسمة. ذهب لتحضير الشاي وهو يسير في غابته، ثم عاد. جلست بجواره، نظر إليها من داخل غابته، فبدت بعيدة جدًّا، سألتها:

- عاملة إيه في الدنيا؟

- انتا اللي عامل إيه؟

- بعافر أهو. انفصلت أنا وغادة من أسبوع. فمش في أحسن

حالاتي

- حاجة معينة حصلت؟

- لأ عادي، الزمن

- حكيم برده حتى وانتا مكنتب

هز كتفيه محاولًا الابتسام، قطعت الصمت:

- والطيران؟

- والطيران

كل من يعرفه هو وغادة يعلم أنها ممن أصبحوا قادرين على الطيران بعد الحدث الكبير. زميل آخر في العمل، هو إبراهيم، غادر العمل والبلد كلها بمجرد أن استطاع الطيران هو الآخر. بالنسبة لمن استطاعوا الطيران، كانت علاقتهم بالآخرين تشعرهم بالمحاصرة وبالقيود، حتى أكثر العلاقات أصالة لا يمكنها النجاة بسهولة من انفتاح عالم مليء باحتمالات لا تنتهي أمام أحد أطرافها دون الآخر. ندى نفسها عانت من أسابيع قليلة انفصالًا مشابهاً، ليس لأن

صديقها، مصطفى المنياوي، استطاع الطيران كعادة، ولكن لأنه أحب
واحدة تستطيع الطيران، وكانت خطته أن يتعلق بها ويذهب معها إلى
مكان جديد، بعيد.

- كلنا كدا

قالت ندى بأسى صادق، وتنهدت. ربت على شعرها، "متزعليش".
"أنا كويسة، وتجاوزت الموضوع، انتا بتفكر في إيه؟".

- مش عارف فعلاً

- هتيجي الشغل بكرة طيب؟

- ماعتقدش، حاسس إني محتاج أغير حياتي، مش عاوز أفضل أدور
في نفس الساقية للأبد

- بس الشغل لطيف، وكلهم بيحبوك

صمت، وصمتت. إن لم يكن قادرًا على الطيران فعلى الأقل ما زال
بإمكانه التنقل. مفارقة أن يفكر في ذلك وهو غير قادر على مغادرة
غابته، أو ربما بسبب ذلك تحديدًا. عدل من جلسته لوضع أفقي،
ووضع رأسه على ركبته، وأغمض عينيه.

باتت ندى عنده، دون أن يحدث بينهما أي شيء، وعندما أيقظته
للعمل اعتذر، لكنه شرب معها شاي الصباح، دون أن يتبادلا كلامًا
كثيرًا، احتضنته مودعة:

- هتكون أحسن، متخافش

غادرت. لكنها ستعود كثيرًا.

٤

لطالما أربكه وجود مصطفى المنياوي في محيطه. خليط من الغيرة
المبهمة وعدم الاحترام الصريح، غيرة مبهمه على ندى التي نظريًا

ليست أكثر من صديقته، وعدم احترام صريح نتيجة لغرور مصطفى غير المبرر. طبيب شاب، من أسرة مدينية ميسورة، دون أي صفات شخصية بارزة، لم يتجاوز إحساس المراهقين المتفوقين دراسياً وطبقياً على زملائهم، وربما بسبب إحساسه العميق بالاستحقاق، لم يترك أبداً ما يظن أنه له. لم تكن ندى بالطبع تشارك محمد انطباعه عن مصطفى، وترى في إحساسه بالاستحقاق ميزة لا يمكن إغفالها، جريء، ومبادر، ويتحرك في الحياة بثقة من لم ينكسر أبداً، وتنتشر ثقته هذه الطمأنينة في من حوله. حتى غروره رأت فيه ندى رهاناً على المستقبل، أكثر منه فخراً بوضع طبقي معين. رهان مقامر، لكنه يصاحب دوماً أولئك الذين يحققون الأشياء العظيمة. ورغم أنه من الممكن القول إن مصطفى خيار آمن تماماً، فإنه كان بالنسبة لندى خياراً يفتح باب المغامرة الشغوفة في الدنيا. دائماً لديه مشاريع عملاقة، له عشرات الهوايات، بجانب عمله طبيياً، يكتب الروايات، يشارك في عروض مسرحية، يسافر في السنة عدة مرات ومعه ندى.

مدهش كيف يختلف تفسير نفس الصفات لنفس الشخص بحسب موقع الشخص المفسر منه، فحتى محمد لا يمكنه أن يدعي أنه لم يستفد أبداً من جرأة مصطفى، خاصة حين كانوا في أحد المدن الساحلية واكتشفت عادة أن أحد من يجلسون بجوارهم يلتقط صوراً لها. اشتبك محمد مع الشاب، الذي تداعى لنصرته خمسة شبان مفتولي العضلات من نوعية هؤلاء الذين يمتلئ كل "جيم" بهم. كان هذا الاشتباك الجسدي الأول لمحمد في حياته بعيداً عن قريته، بعيداً عن حسين والتعلب ومحمد عبد الحميد والقط والأعرج، وبعيداً عن جامعته، عن غانم والتربو والترولي ونظرية، وعن أماني. وبغريزة مدافع الكرة الذي كانه، صد اللكمات بيده، وسدد بعض الركلات هنا

وهناك. ارتفعت الأحزمة، وبينما يتلقى عدة لكومات في وجهه وبطنه، سمع بعض المقاعد تتكسر، ندى وغادة تصرخان وتحاولان المشاركة في الاشتباك بلا نجاح يذكر، حين ظهر المنياوي، ليؤدى واحدة من أفضل مسرحياته.

٥

في الطفولة، كل حدث مؤسس. حيث الكلمات ما زالت بلا دلالات، وتكسبها الأحداث دلالاتها الأصلية. كلما سمع محمد كلمة "شلوت"، ففز إلى ذهنه مشهد طيران أشرف في الهواء. كانوا في صباح كل جمعة يلعبون في أرض واسعة، وعندما وجدوها مليئة بأشولة القطن، ذهبوا إلى مكان واسع آخر اقترحه عليهم التعلب. المكان في منتصف بيوت لا يعرفون فيها أحدًا، كانوا غرباء، وبعد نصف ساعة تجمع أطفال المنطقة ليتردوهم. لم يكن حسين معهم ليقود المعركة، فتطوع التعلب بالقيادة المؤقتة. وعندما رأهم الأطفال الآخرون متحمسين للمعركة، نادوا إخوتهم الأكبر. بدأت المعركة كأى معركة كبرى بمبارزة فردية، لكن في حركة تخلو من المروءة، أحد كبار الأطفال الأعداء استفرد بحارس مرماهم، القط، وضربه. في هذه اللحظة جرى أشرف بكل قوته بطول الملعب، وقفز في الهواء وهو يسدد ركلة إلى رأس العدو. قوانين معارك الأطفال بسيطة، لكن حكيمة. في كل الأحوال سنُضرب، عليك فقط أن "تعلم" على عدوك، تترك فيه جرحًا ظاهرًا، أما من ضرب من أكثر فهذا أمر جدلي، خاصة أن مجموعة محمد هي من تلقت النصيب الأكبر من الضرب. غضب الأعداء من مهارة أشرف، الذي كان يلعب الكونغ فو، تحلقوا حوله فجرى بقية الفريق لإنقاذه، فضربوا، حتى أن التعلب قائد المعركة فر منها سريعًا واختفى أثره. محاصرين بين البيوت ولا مهرب، ولا حكمة لدى الأطفال الأعداء

لوضع حد للمعركة، حاول أشرف، لأن الحرب خدعة، أن ينقض على أصغرهم ويهددهم بضربه، لكنهم منعه وكتفوه. أمسك محمد بأكر طوبة وجدها وحاول إلقائها عليهم فكتفوه هو الآخر، وهكذا خسر فريقهم قياداته الثلاث. لكن، وككل المعارك الكبرى، وحين يبدو أن الأمور قد حسمت، ظهر التعلب، وبجواره الأسطورة، محمد متولي.

٦

تردد وهو يفكر في أن يبعث لغادة يستفسر عن أخبارها، وفكر أنه بعد غادة لا يعرف لمن يشكي اكتئابه، رغم أن هذه الشكوى تحديداً كانت تضايقها دائماً. خرج من البيت وسار دون هدى في الشوارع، بينما يسير عقله دون هدى في غابته، كان يسير في عالمين في الوقت نفسه. في غابته كانت الأشجار كثيفة، كل حدث حصل له أنبت شجرته الخاصة. وجود غادة كان يمنحه طريقاً في الغابة يسير فيه، متلمسا حبل صوتها، ليصل إليها، فبأي صوت يهتدي الآن.

لم تكن لديه فكرة عن بديل عمله، كل الفرص المتاحة مشابهة جداً لما يفعله، ولن تمنحه الشعور بالتنقل الذي يرحوه. شعر باقترابه من الشوارع التي تؤدي لبيتها فسار راجعاً حتى وصل بيته، وهمجد وصوله وضع رأسه على السرير ونام.

أيقظه رنين الهاتف، أخبرته أمه بنقل أبيه للمستشفى، أزمة قلبية أخرى. لبس بسرعة وذهب إليهم، كانت أمه أخته وأعمامه وأخواله جميعهم هناك، أو على الأذق من تبقى منهم. رأى خاله الأصغر على باب المستشفى، مرخياً جناحيه، يدخن سيجارة. سأله عن حالة أبيه، ”إن شاء الله خير“. تركه وصعد لأمه، احتضنها، طمأنها أن كل شيء سيكون على ما يرام. أخرجته الصدمة من الغابة، وأصبح في العالم.

تبادل الحديث مع أعمامه وأخواله، سلم على غانم الذي أتى مسرعاً،
أخته جالسة دون حراك تبكي، طمأنها، بثقة مفرطة ناتجة عن شعوره
الوقتي بالهروب من الغابة، أن أباه سيغادر المستشفى غداً على
قدميه. صدق هو نفسه ما قاله، وذهب للطبيب فقط زيادة تأكيد.
أخبره الطبيب أن أباه فعلاً في تحسن، وربما حتى يغادر اليوم.

عاد لأعمامه وأخبرهم، حمد عمه الكبير الله، وقال:

- اثنين كثير برده، ربنا أرحم من كدا

كان يشير لوفاة عمه سعيد، أوسط إخوته، الذي مات قريباً في
أزمة المرض الخطير. كان عمه سعيد أقرب أعمامه لقلبه، بحيويته
وظرفه واستعداده الدائم للمساعدة وتحمل مسؤولية كل شيء. لم
يكن بجواره في مرضه، لم يغادر المستشفى التي بها غادة وقتها إلا
للعمل ثم يعود إليها، وينام في المستشفى.

ظل بالمستشفى طيلة الليل، نام هناك، وفي الصباح غادر هو وأمه
مع أبيه لبيت والده. استقبلتهم أخته الصغرى فرحة، والده منهك،
لكنه سعيد بنجاته، ومازح ابنته التي ما زالت قلقة:

- مش أبوكي الي يروح بالسهولة دي بين يوم وليلة

قضى اليوم كله بجوار أبيه، خصمه التاريخي، علاقتها متوترة
منذ مراهقته، مراهقة محمد بالطبع وليس أبيه. ولطبيعة أسرتهما
المتحفظة في التعبير عن مشاعرها، لم يستطع أحدهما أن يعيد وصل
ما انقطع، كانا يحلمان خصومة ذابلة لم تعد ذات معنى منذ سنوات
طويلة حين انتقل للعيش بمفرده. ورغم ذبولها، لم توات أيّاً منها
الجرأة ليخلعها من التربة نهائياً ويقضي عليها.

في الليل، دعت أمه للبيات، لكنه خاف إن طال مكوثه لديها أن

تسأله عن غادة وأسباب الانفصال، فاعتذر محتجاً بأنه لا بد أن يذهب إلى عمله في الصباح، وحاسوبه هناك في بيته. تضايقت قليلاً، تمكنت بمرور الوقت من التسليم بأن ابنها الكبير قد طار بعيداً عنها.

٧

علم بمرض غادة من والدها. كان المرض الخطير، الذي لم يعرف أحد طبيعته، قد بدأ في الانتشار على مستوى العالم، حمى ووجع جسدي لا يحتمل خاصة في الظهر. كانت قصص وفيات المرض وإصاباته هي الخبر الأول في كل النشرات والجرائد، ورغم مرور شهر كامل على بدايته لم يعرف الأطباء ما هو ولا كيف ينتشر، ولا حتى كيف يبحثون عن علاج له. تاه قلبه منه حين أخبره أبوه بمرضها، كانا متعاركين قبلها، غير معاركهما التقليدية، كانت المعركة الأخير، عن الأزمة الصامتة التي بدأت منذ العلاقة، وفضل هو كعادته أن يتجاوزها دون خوض معركتها للنهاية. ذهب سريعاً للمستشفى، أبوها قلق وكذلك إخوتها الأربعة، محمد وأحمد ومصطفى ومحمود، كلهم على اسم من أسماء الرسول، تحقيقاً لنذر جدتهم بعد وفاة أول ابن لوالد غادة، إيماناً منها أن ذلك سيحميهم ويدخل البركة للبيت. غادة كانت الثالثة الأسرة بعد محمد وأحمد. إخوتها كلهم جالسين على مقاعد المستشفى بلا توتر ظاهر، عكس والدهم، وبسكون تام، عكس والدهم أيضاً.

- أنا لسه مفقتش من موت أمها

قال والدها ثم زفر، وكاد يبكي. وجد محمد نفسه في دور الشخص الهادئ الواثق مضطراً، وهو الدور الذي طالما التصق به دومًا إلا مع غادة.

هي من اقترحت عليه بعد فترة قصيرة من الحديث الإلكتروني أن

يلتقيا. وقتها كان يخزن مشاعر قوية تجاه ندى. لكنهما تقابلا. بدت أشجع وأكثر اقتحامًا على الحقيقة، مقتحمة للدرجة التي جعلتها خجولًا لدرجة ما.

- سمعت عن حكاية الست اللي كانت بتخون جوزها مع عشرين واحد، فجوزها اتجنن دا، عشرين واحد يا مفترية، بتفتكرهم ازاي دي كانت هذه افتتاحية حديثها، غمرت النكات الجنسية للقاء كله، أغلبها من جانبها. في ما بعد ستقول له إنها حاولت في البداية أن تكسر حدة غرابة اللقاء، لكنها لم تعرف لاحقًا كيف توقف نفسها. بعدها بثلاث ساعات كانا يسيران في الشوارع يعلقان على صدور جميع السيدات وهما يضحكان، وهو يرجوها أن تخفض صوتها قليلًا كي لا يسمعها أحد. قالت له إنها يمكن أن تأتي لمكتبه لتجلس معه قليلًا قبل أن يخرجها المرة القادمة، ترتدي فستانًا أزرق طويلًا، مكشوف الذراعين، مفتوح الرقبة، وينسدل، للأسف الشديد، شال طويل من رقبته ليغطي مقدمة صدرها، بداية غريبة. ضاعت مشاعره تجاه ندى ذلك اليوم.

- مش هتقوم انتا تروح تنام؟

سأله والدها في المستشفى، أجابه بالنفي. رجع إخوتها للبيت وظل ووالدها منتظرين. خصومة خامدة أخرى، مرجأة حتى حين. ناما على أكتاف بعضهما البعض.

٨

نظر لدبلته الموضوعه بجانب السرير، كان مرتاحًا لنجاة والده، إلى أين تعلم الطيور أنها ستهاجر يا غادة. ندم الآن أنهما لم يتحدثا أكثر في لقائهما الأخير، هكذا ترك نفسه فريسة سهلة لتداعي أفكار

لا يمكنه إيقافه: إلى أين ستطير غادة، ما خطتها، هل قابلت أحداً ما وأعجبها، أين هي الآن، هل يتصل بها ليطمئن عليها، ألن يبدو مثيراً للرتاء إن أخبرها بمرض والده ليسرق بعض الاهتمام منها؟ ربما سمعت عن تعب والده من أصدقاء مشتركين، فلماذا لم تتصل به؟ هو كان ليحدثها وفوراً ويكون إلى جوارها. ربما تكون قد طارت خارج البلاد كلها، طار النوم من عينيه، بعث برسالة إلى ندى يسألها إن كان بإمكانها أن تلتقيه الآن، ردت، ”الساعة اتنين ونص بالليل يا محمد، خلينا نتقابل بكر، إنت عامل إيه؟“.

لم يرد، حاول النوم بلا جدوى، القراءة بلا جدوى، مشاهدة مسلسل بلا جدوى. مر الليل طويلاً عليه في الغابة، الأشجار كثيفة، ماذا فعل في حياته ليحاصر هنا. حاول تسلق بعض الأشجار ليعرف اتساع الغابة دون نجاح، تجول في الغابة ليضيع وقته. بدا لنفسه جباناً أكثر من أي وقت مضى، لماذا أعجبت به غادة من البداية؟ هل خدعها مشهده الوقور والهادئ ولم ترَ الحطام الذي يخفيه؟ ماذا حقق في حياته حتى الآن؟ لن يجد عملاً آخر، وسيعود مهزوماً إلى عمله الحالي. لن يستطيع أن يغير حياته أبداً، ما دام سيظل هو هو، ينتقل بخراجه الداخلي من مكان إلى آخر، يثير الإعجاب للوهلة الأولى، حتى إذا اقترب أحد منه بالدرجة الكافية ورأى خراب روحه فعل مثل غادة وابتعد. تعلم الطيور، منذ صغرها، إلى أين ستهاجر من غابته.

لم ينم غير ساعتين، لكنه استحم ليفيق لمقابلة ندى. اتصل به عدة أصدقاء آخرين مطمئنين عليه، ولم يجبههم. شرب فنجانين قهوة، وغادر منزله.

يد على كتفه ثم ”مستني حد يا أستاذ؟“، يد ندى وصوتها المرحة. أدرك لماذا أحبها ذات يوم، ”القطر، بس شكله اتأخر أوي“، رد عليه مسائراً مرحها، ثم سارا دون اتجاه محدد. حكّت عن العمل وسؤال الزملاء عنه، سألته عن أخباره، متى يعود، مضت ثلاث أسابيع منذ غادر.

- مش عارف

- طب وناوي تعمل إيه؟

- مش عارف

أمسكت يده واحتضنتها، كأنه فعل اعتادت عليه، وأكملت المسيرة صامتة. كيف يقطع إذن هذا الصمت الذي تسبب فيه؟ هل يسألها عن صديقها السابق، عن أخبار زملاء العمل، هل يحكي لها ما يشعر به وهو داخل الغابة، أخبار ”الطائرين“ التي لا تتوقف الصحف عن نشرها منذ الحدث الكبير، بدا حلم الإنسانية يتحقق أخيراً، لا عباس بن فرناس وآلته، ولا البالونات، ولا الطائرات، أناس حقيقيون بأجنحة حقيقية يستطيعون الطيران. قليلون جداً هم من شفوا من المرض ليكتشفوا أجنحتهم النابتة تلك، خمسون ألفاً على مستوى العالم كله، أغلبهم في منطقة الشرق الأوسط، اعتبرهم العالم بداية لعالم جديد، فصلوا جميعاً على تسهيلات غير مسبوقة في كل شيء، حتى أن غالبية الدول منحتهم إذناً دائماً لدخولها. مئات المراكز البحثية راسلتهم ليكونوا جزءاً من البحث عن الطفرة غير المسبوقة، الكثير من الوكالات الإعلانية لاحقتهم كذلك، وكل الشركات العالمية أحبّت أن يكون جزء من موظفيها من ذوي الأجنحة ليكونوا جزءاً من صورتها، حتى أن الحكومة هنا عينت وزيرة بيئة شابة، لا يؤهلها أي شيء سوى جناحها.

- سرحان في إيه؟

سألته ندى، وأكملت ”ومتقوليش مش عارف تاني“. ابتسم، ”بتأمل في الوجود والعدم“، أجاب مازحًا، نظر حوله، سارا طويلًا، اقترح أن يجلسا في مكان ما لتستريح، جلسا في أقرب مقهى، طلبت شيشة وقهوة، وطلب شايه المعتاد دون سكر. هي من جعلته في وقت ما مدخنًا شرهًا للشيشة، لا تجلس في مكان دون أن تطلبها، في البداية كان يأخذ منها بعض الأنفاس، ثم صار يطلب واحدة لنفسه، لكنه أفلح عن ذلك منذ صداقته بغادة التي يضايقها دخان الشيشة. يضايقها أيضًا دخان السجائر، لكنه أخبرها حين اقترحت عليه الإقلاع عن التدخين، أنه ترك الشيشة بالفعل وسيحاول التقليل من السجائر، امتعضت، فأخبرها ”معلشي بقى، مش كل ما يتمناه الإنسان يدركه“. جلس بجوارها، وأخذ يصنع الدوائر في شايه، تمامًا كما فعل مع غادة آخر مرة.

- بتفكر تشتغل إيه طيب؟

- طيار

- يابني بتكلم جد

- صياد

- اتكلم جد

- صياد طيور

قال مازحًا، ثم أحنزته إجابته. فكر في ”الطائرين“ وهم يرخون أجنحتهم صاعدين إلى الطائرات. رغم قوة أجنحتهم، فإنهم أضعف من أن يعبروا مسافات طويلة جدًا دون راحة. أتته صورة غادة نائمة في طائرة، جناحها بجوارها، ملاك طائر كسول، ربما لو حصل الحدث

الكبير في زمن آخر لاعتبرهم الناس سحرة وأعدموهم، أو اعتبروهم جنساً آخر غير البشر وقدسوهم، لكن الأطباء أكدوا أن ”الطائرين“ مجرد بشر عاديين بطفرة جينية غير مفهومة ولم يحدث مثلها من قبل، لكنهم قادرون على التزاوج من البشر غير الطائرين، مع احتمالات متساوية للأطفال، ربما يكونوا طائرين وربما لا.

- سرحت تالي

- مش هرجع الشغل يا ندى، دي الحاجة الوحيدة اللي أنا متأكد

منها

- أيوا، هتعمل إيه يعني، استنى فيه لحد ما تدور على حاجة تانية
ماذا سيعمل فعلاً، لم يعمل في حياته إلا في هذه المهنة، وأشهر
قليلة في مكتب والده كمهندس مدني، لن يعمل مهندساً مرة أخرى
بالتأكيد، ربما كان ليصلح كصائد طيور في زمن ما، لا يعلم بالضبط إن
كانت هذه مهنة أم لا، ولا يعلم حتى إن كان ليحتملها. كان يجيد
التصويب على المرمرى من بعيد في كرة القدم، دائماً ما جعله حسين
الخيار الأول في لعب الكرات الثابتة، هل يكفي هذا؟ هل أتته الفكرة
كمجاز عن ملاحظته لغادة؟ هل يريد أن تسقط فعلاً، هو الذي
سحره انطلاقها الدائم المخالف لطبيعته تماماً؟ إن كانت الطيور تعلم
منذ صغرها أين ستهاجر، فلماذا تظاهرت بالهجرة إليّ يا غادة ثم
انطلقت إلى مكان آخر؟

سحب الشيشة من ندى وأخذ نفساً قوياً، كح بعده مباشرة. هل
يواعد ندى؟ ليس باستطاعته الآن أن يعطي أي مخلوق أي شيء، لا
شيء لديه، وحيداً في الغابة يبحث عن ممر ما إلى الخارج. كل شيء
بعيد، كيف يخطط لحياته وهو محاصر هنا.

عندما عاد لبيته، أرسل رسالة قصيرة لغادة.

”أتمنى تكوني بخير. معرفش إذا كان صح أبعثلك وللا لأ. وحشتيني“. ظل محددًا في هاتفه ينتظر ردها، ولما يئس، نام. لن ترد عليه إلا بعد أسابيع.

١٠

صحيح أنه المدهش، كما تقول إحدى العبارات التي لا يذكر محمد أين قرأها، أن يقع اثنان من كل مليارات الناس في هذا العالم في حب بعضهما البعض في نفس اللحظة، ولكنه مدهش بنفس الدرجة كيف يتمكن اثنان أن يتوقفا عن ذلك في اللحظة ذاتها. فغالبًا ما تتسبب فروق التوقيت هذه في مأس عاطفية بلا نهاية. تحب شخصًا قبل أن يحبك بأسابيع قليلة، وربما يتسبب حبك المبكر ذلك نفسه في تعطيل حب الآخر لك، لأنه يرى جانبك الأكثر هشاشة. وبالمثل، قد يسبب توقف حب شخص لك قبل أن تتوقف أنت بقليل، في أن تحارب وحده أفكار الرفض والفشل وانعدام الثقة بالنفس، رغم أنك تعرف جيدًا أن العلاقة كانت تسير إلى هذا المصير. محظوظة ندى بحسن توقيتاتها دائمًا، كأنها موهبة ربانية صقلتها التجارب والدنيا، ففي اللحظة التي أعدها مصطفى لإخبارها برغبته في الانفصال، كانت اللحظة التي تلاشى في قلبها أي أثر لحبه. هل رأت علامات الانهيار واضحة وأخذت في التخلص من مشاعرها يومًا بعد يوم، حتى يكون توقيتها مثاليًا هكذا؟ أم أنها الموهبة نفسها التي ترى في الحب حبلاً إن قطعه شخص ما، أصبح مقطوعًا من الطرفين في اللحظة نفسها؟ على العموم، ستثبت الأيام أن حتى أكثر الموهوبين في اختيار توقيتاتهم مثل ندى، قد يخونهم التوقيت أحيانًا.

عندما اتفقا على الخطوبة، كانت غادة من اقتراح أن يكتب كل منهما جملة ما على دبلة الآخر. قالت ذلك بعدما حضرت جملتها بالفعل، فكر قليلاً واقترح، ” لا يخطئ الطير أبداً مكان بيته“، كتنويعه على جملتها. اهتمته بالتسرع وعدم الإبداع وعدم أخذ الأمر بالجدية الكافية، فعاد للبيت وأرسل إليها سبعة اقتراحات:

- معاً، لا يمكن لشيء أن يوقفنا

- يعلم القلب، حين يعلم القلب

- الأشياء الجميلة وجدت لتبقى

- أرق من طائر، وأقوى من عاصفة

- طيري يا طيارة طيري

- يسكن المرء حيث يسكن قلبه

- ما تبطل تمشي بحنية ليقوم زلزال

ردت برسالة قصيرة، ”بس كدا، دا آخر الإبداع، مش انتا شغلتك يا بني تكتب كلام يعلق مع الناس؟“، لم يعرف بماذا يجيب، أرسل لها وجه ضاحك و”اختاري انتي“، فاقترحت أن تكتب على دبلتها نفس الجملة التي اختارتها له. لم تكن تقترح تمامًا، بل تخبره بما سيحدث، وهو، بالطبع، ما حدث.

ربما تكون السعادة عمى مؤقتة عن احتمالات الحاضر المستقبلية، استغراق تام في الاحتمال الأجمل للماضي المتحقق لتوه، واختفاء تام للغابة. في المستشفى، في اليوم الذي اكتشف فيه الأطباء أن نتوئين

ظهرا عند حافتي كنتفيها، كاد يطير من المفاجئة. لقد صارت من الفئة المحظوظة. كانت الأخبار كلها مهتمة بالحدث، أجنحة تظهر لبعض من أصيبوا بالمرض. صرخ فرحًا، جرى في المستشفى، احتضن إختوها، اتصل بأمه يطمئننها، ثم بأخته، وحتى بأبيه الذي لا يتصل به أبدًا، بندي، بزملاء العمل، هل هذه هي السعادة؟

دخل غرفتها، واحتضنها لأول مرة أمام أبيها، الذي تظاهر بعدم ملاحظة ذلك والانخراط في حديث جانبي مع أحد أبنائه، بينما ابتسم إختوها، فيما تضايق محمد، أكثر إختوها تشددًا، لكنه لم يعبر عن ذلك. بكى من الفرحه أيضًا لأول مرة في حياته. وعندما ذهب للعمل، أحضر تورتة كبيرة واحتفل في المكتب بالحدث. كانت عاصفة الفرح التي تسبق الهدوء الذي يسبق العاصفة.

١٣

جلس بجوار أخته في المستشفى، أبوه مرة أخرى، لم يكن متأكدًا هذه المرة من أن كل شيء سيسير على ما يرام، أمه أيضًا أحست بذلك، إختوها، أخواله، كلهم بجوارها، وكذلك أعمامه. شرعت أخته في البكاء، ثم أمه، ثم سألت عينا عمه الأصغر. خرج من المستشفى، وقف بجوار خاله الطائر وأشعل سيجارة:

- تفتكر هتعدي يا خالو؟

- كل شيء بيعدي

- انتا فاهم قصدي

- ربنا معانا

جلس عن يمينه في العزاء بعده سلسلة أعمامه، محمد أول طابور العزاء. بترتيب مختلف كانوا جالسين منذ أسابيع قليلة في نفس

المكان في عزاء عمه سعيد، كان والده عن يمينه وقتها، وخاله الطائر لم يزل حينها في المستشفى. لم ينم أي منهم، أخذت أيدهم تصافح المعزين بشكل ميكانيكي. حضر أصدقاؤه منذ الصباح وانتهوا من أغلب الإجراءات. لم يقوَ على حمل النعش، لكنه أصر، حملة عدة مرات، وأخذ يبدل دوره بين أصدقائه وأعمامه وأخواله. حسين صديق طفولته أول من حضر، لم يلتقيا من سنوات، ومحمد غانم وعبد الرحمن سعيد حضرا مبكرين أيضاً، وهاهم واقفين أمامه في العزاء. ولوهلة، ظن أنه رأى ”التعلب“ أيضاً. وقف أصدقاؤه يتحدثون في أمور تكتيكية مع أصحاب الفرش والميكروفونات والمقرئ.

لم يكن أبوه يوماً ممن يجيدون التصرف في الأمور الاجتماعية، وربما هذا ما جعله يقول له بصوت واهن تماماً في المستشفى أكثر الجمل كليشيهية، ”خد بالك من أمك وأختك“. أربكت الجملة كليهما، أمسك دموعه ورد عليه:

- ياعم بلاش دراما، انتا زي الفل أهو

خرج من الغرفة، وجلس على مقعد وبكى.

أخذ المعزين يتناقصون بعد ربع القرآن السادس، ”ربع كمان وللا إيه“، سأله محمد غانم. سأل عمه الأكبر بدوره، أخبره عمه، ”خليهم ربعين“. في بداية العزاء شاهد ندى من بعيد، كادت تدخل عزاء الرجال، فأشار صامتاً إلى مدخل بيتهم حيث عزاء السيدات، ترددت ثم دخلت. حاسب أصدقاؤه المقرئ وأصحاب الفرش، لم يبق غير الدائرة الأقرب، أعمامه وأخواله وأصدقاؤه الثلاثة، جلسوا في دائرة، وتكلم أعمامه عن طفولة والده، أخواله أخذوا ينسحبون للبيت حيث أمه. تذكر ندى، فاستأذنتهم ودخل.

كانت تحتضن أخته. أمه في عباءة سمراء وحجاب يظهر بعض

شعرها، عكس عاداتها. صديقاتها بجوارها، وأحواله يتحركون في البيت بحرية. مدت ندى يدها:

- البقية في حياتك يا محمد

- حياتك الباقية، شكرًا إنك جيتي

لم تعرف كيف يمكنها الاستمرار في الكلام فأكملت احتضان أخته. أمه صامته، قبل رأسها وخرج لأصدقائه. استأذن أعمامه قائلين إنهم سيكونوا موجودين في الصباح الباكر. اقترح أصدقاؤه أن يذهبوا لقهوة قريبة، قال إنه يريد أن ينام، جلسوا دون كلام، رأى ندى تخرج، نظرت إليه فذهب إليها:

- شكرًا إنك جيتي

- لو عزت حاجة في أي وقت كلمني، هاجي بكرة برده، هو دا وقت مش مناسب، بس أنا اكتشفت إنك مش قايل لمامتك إنك استقلت من الشغل

- كل شيء في وقته

- كلمني

- أكيد

جلس مرة أخرى، حوله حسين ومحمد غانم، في هذا الصمت، وهو منهمك تمامًا، تذكر غادة.

١٤

ارتدت غادة فستانًا أحمر قصيرًا في الخطوبة، شعرها منسدل على ظهرها الخالي من الأجنحة، حولها إخوتها الأربعة وصديقاتها ووالدها، وهو معه والده وأخته ووالدته وندى وغانم وبعض زملاء العمل.

كان بيتهم واسعاً واستوعب بسهولة العدد القليل. كان مرتباً أكثر منه سعيداً، هي فرحانة، رقص إخوتها، ثم سحبوه ليرقص معهم، ثم سحبوها. اخذ ينقل قدميه بهدوء ويهز كتفيه، تذكر أماني والمؤامرة الغربية فابتسم. أمه سعيدة، أبوه هادئ، أخته في فستانها الأزرق وحجابها اللبني، رقصت في البداية بتحفظ لوجود والدهم، ثم امتلكت الصالة، ونافست غادة، لحظتها أحس بالسعادة، نهرتها أمه بعينها لكنها لم تكثر، لمحت غادة ذلك فأخذت بيدها ورقصت معها، ووقف هو يهز كتفيه بينما إخوتها يرقصون بكامل طاقتهم. طلبت منه والدته العودة لمقعده، عاد وعادت غادة وهدأ الجميع. تكلم والده بصوت جهوري متماسك، لعله فكر كثيراً ليبدو بهذا التماسك:

- الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، احنا يشرفنا يا أستاذ أمجد إننا نطلب إيد بنتكم غادة لابننا المهندس محمد

- واحنا يشرفنا النسب يا أستاذ محمود

- نقرا الفاتحة ونلبس الدبل. قرأوا الفاتحة، ثم تقدمت أمه بالشبكة، ألبس غادة سلسلة وخاتماً، ثم دبلة الخطوبة المنقوش عليها من الداخل، وهو يقول بجدية ممازحة: أظن الطيور كذا مش محتاجة تهاجر خلاص.

١٥

أرسل له مديره يخبره أنه في ظل تغييه ثلاثة أسابيع عن العمل، سيضطر لو استمر ذلك لفصله. لم يرد على رسالته، كان في غابته يقطع شجرة فتنتبت أخرى أكبر، يقطع مسافات طويلة ثم يعود لنفس نقطة بدايته. ألا تنتهي تلك الغابة أبداً؟ لم ترد غادة على رسالته قط، فكر

مرات كثيرة أن يبعث لها برسالة أخرى، ولم يفعل، يلتقي بندي كل يوم تقريبًا بعد انتهاء عملها، كل يوم ترجوه أن يعود لعمله، كل يوم تسأله عن خطط، تبعث له بفرص عمل، يكلمه زملاء العمل ليخرجوا معًا ولا يرد عليهم، بات عدة أيام لدى محمد غانم، صديق الجامعة، لا يتكلمان غالبًا، يلتقي حسين في الأسبوع مرة يجلسان على القهوة يدخان الشيشة، التي عاد إليها الآن. في إحدى المرات كتب رسالة على هاتفه لغادة ”بعادك يا جميل طول، ودا، إحصائيًا، أول بعاد بيطول“، ثم مسحها.

بعد خروجها من المستشفى، ذهبت لبيت والدها، زارها هناك، كان جناحها لا يزالان صغيرين جدًّا، كان لا يزال فرحًا بنجاتها. غادر إخوتها الغرفة وتركوهما وحدهما، لا زالت متألمة، حن إليها، وأمسك يدها:

- مش بتفكر تسافر؟

- أسافر؟ ليه؟

- نغير حياتنا ونعيش حياة أوسع في مكان أجمل

- مالها حياتنا كدا؟

- روتينية وبنعمل نفس الحاجات وهنفضل نعملها لحد ما نعجز

- أيوا، وإيه الوحش في كدا، مادام بنعمل اللي عاوزينه ومبسوطين

- مانا عاوزة أسافر معاك وهننبسط أكثر

لم تكن تلك خطته أبدًا، كان مرتاحًا في عمله وفي علاقته بها:

- يا بنتي، ماحنا مبسوطين أهو

- هننبسط أكثر

- قومي بس وطيري كدا وهنشوف
- متاخذش كلامي بهزار، بتكلم جد، انا هسافر
- هتسافري لوحدك يعني؟
- مانا بقولك نساfer سوا

كانت تلك أحد معاركها الدائمة معه، هذه المرة وجد في استعجال المعركة تلميحًا لقدرتها الجديدة. قبل المستشفى كانا في معارك متتالية، إحداها بالطبع عن السفر، أخرى عن مكان بيت الزواج، الثالثة عن عدم طموحه في العمل والرضا بنفس مكانه الذي يعمل به منذ سنوات، رابعة عن سقوطه الدائم في دوامات اكتئابه دون العودة للطبيبة النفسية التي زارها مرة ولم يكررها، سابعة عن ميله لتجنب النقاشات.

- المهم دلوقتي تبقي كويسة
- صمتا، دخل إخوتها، تحدث معهم قليلًا ثم انصرف، ولم يلتقيا قبل مرة الانفصال إلا مرة واحدة.

١٦

بعد ثلاثة أيام من العزاء، قبلته ندى. لم يكن توقيتًا مثاليًا. كانت من القبل التي يعلم المرء بعد منتصفها، رغم جمالها، أن الأمور ستبدأ بعدها في التدهور. اعتذرت.

- أبدًا. دي حاجة جميلة خالص

شاهدته هو وغادة، في بداية علاقتهما، وهما يقبلان بعضهما في المكتب. غادر الجميع، ووجداهما فرصة سانحة. دخلت فجأة، كانا أمامها، ضحك متوترًا، فضحكت ندى، ثم غادة.

احتوى المكتب الأليف كثيرًا من مغامراتهما الأولى، ”قفشهما“ أكثر من شخص، وبأدرينالين البدايات تجاوزا الأمر دومًا. احتوى أيضًا كثيرًا من معاركها، بل وأكثر معاركها صمتًا، التي لم يتحدثا فيها سوى مرة واحدة.

- مفيش داعي فعلاً للتوتر، كانت شيء جميل

نجت صداقته مع ندى من الكثير من المواقف المربكة، ومن يدري، ربما تنجو من هذا القبلة أيضًا. بالوقت تمكنت أن ترث جزئيًا بعضًا من قدرة صوت غادة على إخراجه من غابته. ولم يرد أن يفقد هذا الصوت مجددًا. تنجو العلاقات المربكة بقدرة طرفيها على رؤية مكمّن ارتباكها والتعامل معه، لم يكونا أبدًا ”مجرد أصدقاء“، لكن بوسعهما التصرف هكذا. الحميمية الزائدة يمكن تصريفها في تدخل غريب واقتحامي في حياة بعضهما البعض، الانجذاب الجنسي يتحول لنكات جنسية أو حديث شديد صراحة عن تجاربهما. والمهارة في معرفة أي نقطة بالضبط يجب أن يتوقف المرء عندها قبل أن يورط نفسه في شيء لا يمكن تصريفه.

- الشغل عامل إيه؟

سردت حكايات طويلة متقطعة عن جميع الزملاء، وحديث مديره الدائم عنه. ترتدي تيشيرت أبيض خفيفًا، نص كم، يعطي فكرة واضحة عن الوعود السخية التي يخبئها، قدم على قدم، علامة على ارتياح مؤقت رغم اللحظة السابقة، تجلس بجواره، رقبته شديدة البياض، طالما أغرته لسبب ما بعضها، شعرها شديد الطول، يبدو دائمًا مغامرة غير موثوقة في شوارع القاهرة، شفتاها مكتنزتان حمرانًا بسبب أحمر الشفاه، والآن يعلم أنهما شهيتان كرقبتها تمامًا. اقترب منها وذاقهما مرة أخرى. ملح نظرتها إليه، ”حببت أتأكد“، قبلته،

توقفا بعد ذلك، دون توتر، ودون خطة واضحة لما سيحدث بعد ذلك. بعدها بأسبوع سيجدان نفسيهما في موقف أكثر إرباكًا، سيأخذ مكانة هذا اللقاء كأعلى نقاط ارتباك علاقتهما.

١٧

لا يذكر تحديدًا متى بدأ اكتبابه، كأنه جزء من هويته التي كبر عليها، يذكر أنه كان يفكر في الانتحار وهو في المرحلة الإعدادية، يضحك الآن من الغابات القصيرة الصغيرة التي كان محاصرًا فيها، مقارنة بغابته الكثيفة العالية التي يوجد بها الآن. كبرت معه الغابة وتنوعت أشجارها، ربما هذه بقية جينات أجداده الفلاحين. أوقات قليلة في حياته التي وجد نفسه خارج الغابة، وحينها كان يشعر بالفراغ، كأنه فقد شيئًا أصيلًا فيه. أخف، ولكن لا شيء يميزه عن الآخرين، أحد السائرين في الحياة. تشعره غابته أنه يمتلك شيئًا ما لا يمكن لأحد أن يطلع عليه، جرح في هويته لا يراه إلا هو، هذا الجزء هو ما يجعله مختلفًا تحديدًا. شق طريقه مرة خلالها إلى غادة، سألته الطيبة النفسية في لقائهما الوحيد عن سبب مجيئه الآن تحديدًا:

- خطيبتي أصرت

- دي هيا، انتا جاي انتا ليه، عاوز توصل لإيه؟

لا يعلم فعلاً، يحب أن تكون أيامه خفيفة، متواصلة، دون أن يجلس في غرفته أيامًا طويلة يفكر في الانتحار. حياته نفسها جيدة، امرأة يحبها بجواره، عائلة متماسكة، عمل مستقر، لكن تبدو هذه الأشياء أحيانًا حين تنظر لها من الغابة، كأشياء اعتيادية عديمة المعنى، روتين يومي تفعله بالنيابة عن شخص آخر. أحيانًا كثيرة لا يشعر تجاه غادة بأي شيء، لا انجذاب ولا حب ولا مودة، طمأنينة خافتة ليس إلا.

ولولا الأيام القليلة التي يكون فيها خارج غابته، لشك في قدرته على مبادلة الآخرين أي مشاعر حقيقية.

- عاوز أكون موجود

رد عليها. كتبت له دوائين، وأن يعود لها الأسبوع القادم. لم يفعل، وظن أنه لن يراها ثانية أبدًا.

١٨

- بيقولك هيطلعوا قانون جديد للطيران، للناس اللي بتطير، مفيش طيران بالليل بعد اتناشر، وأي طيران أكثر من ١٠٠ كيلو لازمته تصريح وعليه ضريبة هتروح للمواصلات العامة

نفث محمد غانم أنفاس الشيشة بعد جملته، جاء في الأخبار بالأمس أن رجلًا طائرًا اصطدم بلافتة إعلانية بينما يطير ليلاً. لم يهدأ الحديث عن الطائرين، وربما لن يهدأ أبدًا. قالت إحدى الصحف أن امرأة طائرة حامل في شهرها الثالث، والعالم كله مترقب ليرى طبيعة المولود الجديد، أهو طائر أم لا. منذ أيام قال فريق طبي أمريكي إنه وجد علاجًا نهائيًا للمرض الخطير، الذي يسمونه الآن مرض الأجنحة. لم تعد هناك حالات مرضية كثيرة، والقليل ممن تبقى يظهر في الصحف ليقول إنه يفضل المغامرة بتحمل المرض مع إمكانية أن يصبح طائرًا، على أن يشفى تمامًا ويعود كما كان.

غانم أكثر أصدقائه تقليدية، إن حكمنا بالمظاهر. تزوج من زميلتهم سمر خلال عامه الأخير في الجامعة، لديه ولدان، سامر وباسم، مهندس مدني في شركة إنشائية، أخذ مكانه في الحياة ورضي به، سمر تركت العمل مؤقتًا حين حملت بسامر، ولم تعد إليه. أقصى مغامراتها أنها جربا الحشيش مرة معًا، والخمر مرة أخرى، ومن

هذين المرتين نسج غانم عشرات النظريات عن الفرق بين الاثنين، فيما اعتبرت سمر التجريبتين دليلاً دامغاً على اختلافها عن الآخرين. في شقتها الواسعة بعمارة أبيه، خصصا غرفة له، قائلين بمزاح إنهما يعتبرانه ابنهما الثالث. عارض الاثنان تركه للعمل، وكل مرة يدعوه غانم للعودة للعمل كمهندس. سامر يقوله له ”أنكل محمد“، وباسم الأصغر يدعوه باسمه مباشرة. لطالما كان حظه جيداً في أصدقائه، حتى حسين صديق الطفولة أتى وحده عزاء والده كأنهما لم يفترقا يوماً.

- بس كله إلا الشيخ اللي طلع يقوللك إن الأجنحة دي حكمها زي الإيد للستات، ولازم الستات تغطيها، الله طب ما هيطيروا ازاي يا عم الشيخ؟

ردت غادة على رسالته التي أرسلها منذ أسابيع، بالأمس فقط، بشكل أكثر دقة، أرسلت له رسالة جديدة ”البقاء لله، قلبي معاك فعلاً، لسه عارفه حالاً، عمو كان بالنسبة لي زي بابا، أتمنى تكون أحسن، ولو حابب نتكلم أو نتقابل أي وقت قوللي، أنا موجودة أي وقت“. ما زال يفكر في الرد المناسب، لا يعلم إن كان يريد مقابلتها، أو يريد مقابلتها لكن يخاف من نتيجة ذلك. أن تزيح غادة صوت ندى مرة ثانية، ثم تحتفي، ليجد نفسه بلا صوت يرشده.

- طب وطرايف الريش دي الشيخ هيعتبرها زي الصوايح وللا إيه؟

لم يعلم حتى الآن أي فانتازيات جنسية جديدة خلقتها الأجنحة، شيء جديد على البشرية، وربما يستغرق الأمر وقتاً لإدماجه في المعرفة الجنسية وتقبلاتها. لم يفكر في أجنحة غادة بهذا الشكل، صورتها في عقله ما زالت دون أجنحة، لكن كل شيء يتغير.

تبدو الأمور في الغابة هادئة تمامًا بعد قبلة ندى، كأن طريقًا وهميًا يكاد ينفتح، لا يراه، ولكن حدسه يخبره أنه قد يخرج من هنا قليلًا. أسند رأسه لشجرة وفكر: لماذا لا توجد حيوانات في غابته؟ حتى الغابة المجازية يمكنها أن تشتت نفسها ببعض الحيوانات العابثة هنا وهناك.

أي فكرة إذن يمكن أن تكون الأسد، الملك الوهمي للغابة المتخيلة؟ أنه لن يبادل أحد مشاعرًا حقيقية أبدًا، أم أن حياته كلها مجرد تكرار ملايين الحيوانات الأخرى دون وعد بأي إمكانية أجمل؟ يعرف أيها سيكون القرد، فكرته عن نفسه، مرة كمظلوم، مرة كشخص مؤذ، مرة كشخص فارغ، فكرة تنتقل بسهولة من شجرة إلى شجرة. هل يمكن أن تكون فراشة في هذه الغابة؟ هل تصلح المواقف اليومية المربكة الصغيرة مثل الخطأ في الهم باحتضان أحد يمد يديه فقط للسلام؟ هاجس خفيف، يعكر المزاج، يجذبك إليه ثم يختفي فجأة، قبل أن تجده مرة ثانية في الموقف المربك الجديد. يعلم تمامًا ما هو الفيل، الثقل الذي يزلزل الأرض وهو يمشي، ومع ذلك يبدو جميلًا ومساملاً، الفيل الذي يتجاهله على الدوام.

ما الذي يجعلنا نتعلق بأشخاص آخرين؟ فكر محمد، وهو ينام في بيت محمد غانم تلك الليلة، كيف يقع ذلك بسهولة ويسر كأنه شيء تدربنا عليه طويلاً؟ نقع في مراهقتنا في الحب كأننا خبراء فيه، تعصف عواطفنا بنا دون تدرج، كوحش كاسر كان موجودًا على الدوام، وليس كشجرة تكبر يومًا بيوم، كما نحاول أن نفعل حين نظن

أنفسنا ناضجين، لنجد الوحش يهاجمنا بغتة، وتتهاوى دفاعاتنا أمامه، لكن عندنا من الخبرة ما يجعلنا نقاوم قليلاً.

هاجمه الوحش للمرة الأولى وهو في المرحلة الإعدادية، قبلها كان يقول إنه يحب "سهر" زميلته في الابتدائي، لكن بمجرد هجوم الوحش عليه أدرك الفرق، هذا هو الحب دون شك. الآن يفهم الأشعار الرومانسية التي يحفظها، ويفهم مشاعر المحبين في الروايات الكلاسيكية، الآن هو شخص في العالم يمكنه أن يقع في الحب كأبطال الملاحم الكبرى، وكعامة الناس في الوقت نفسه. ينتظر ظهورها في الدرس، يسلك في عودته من المدرسة الطريق الذي يمر ببيتها لعله يلمحها، ويحاول، كعادة المراهقين، أن يكتب الشعر. الآن ملامح "إيمان" باهتة في عقله، لا يذكر سوى أنها كانت أطول منه، مندفعة، ميالة للعراك دائماً، شاركه في حبها "حسين" صديق الطفولة، سارا مرة واحدة خلفها وهم عائدتين من الدرس، ولسبب ما قال لها حسين إن محمد يحبها، فشكته هو للمدرس ولم تشك حسين. خاض معه المدرس أكثر حوارات طفولته غرابة، قال له أستاذ أحمد إن الصعود للقمة سهل، كثيرون يفعلون ذلك، الأصعب أن تظل على القمة ولا تقع، وقال إنه سيسامحه هذه المرة لأنه ولد متفوق ولديه مستقبل ينتظره، شرط ألا يكرر ذلك. لم يفعل شيئاً لكي لا يكرره، أحبها فقط، وحتى حسين هو من أخبرها بحبه. طلب المدرس من محمد أن يعده وعد رجالة أنه سيتوقف عن حبها، وعده بذلك فعلاً، وبالفعل توقف عن حبها.

بعدها بعام كامل، حين رأى مصادفة بينما يلعب الكرة في الشارع، سهر تعبر في منتصف الملعب وتضم كتبها إلى صدرها، وتضحك، وداعاً إيمان، أهلاً، مرة أخرى، يا سهر.

ربما سيخلو أي تاريخ رسمي أو شعبي للنسوية من هذه الجملة التي كتبتها إيمان على سبورة فصل الثالثة ثالث سنة ٢٠٠٣ في قرية صغيرة بالأقاليم: النساء قادمات. بعد أربع سنوات من توقفه عن حبها، ها هي تعود إليه، في فصل مشترك لطلاب علمي رياضة. لا يذكر بالضبط المعركة الحامية التي دارت بين الولاد والبنات، والتي على إثرها كتبت إيمان الجملة على السبورة في تحد صريح للولاد. في الفسحة اجتمع الولاد اجتماعاً ذكورياً للتشاور الجماعي في كيفية الرد، يجدر أن نذكر هنا أن الفصل كان خالياً من ”النسور“، وهو اللفظ الشعبي القروي الدارج وقتها لما أصبحوا الآن يسمون ”الأشباح“، ولذا بعد اقتراحات حماسية لتقطيع كراسات البنات أو لكسر تختهم، اتفق الجميع على اقتراح أحمد جبر بتحويل جملة إيمان لتصبح ”النساء قادمون“، كتلميح مبطن إلى عدم جمال البنات في الفصل، حتى أنهم يشبهون الولاد. لكن الدقة والموضوعية تقتضي أيضاً أن نقر بعدم صحة ذلك على الإطلاق، على الأقل في ما يخص محمد، الذي كان قد وقع في غرام اثنتين من زميلاته في الفصل، حبه الأول إيمان، وحبه الثاني، والأول نظرياً إن استبعدنا نظرية الوحش، سهر.

تقتضي الدقة أيضاً أن وضع محمد هذا كان ينطبق بحذافيره على صديق طفولته ”حسين“، الذي وبدون اتفاق، وبشكل عجيب تماماً، انتقل من حب إيمان، المحاربة، إلى حب ”سهر“ الهادئة، رغم أنه أسرَّ إلى محمد مرة في الفسحة، وبأسى شديد، وبلغة وقحة يصعب إعادة استخدامها، أن سهر رغم جمالها الشديد تفتقد للتضاريس التي يفضلها في الإناث.

امتلك حسين، بمعايير هرمونات ثانوي، عدة مميزات عن محمد،

كان مهاجمًا ممتازًا لفريق المدرسة، صوت ممتاز يؤهله ليكون المقرئ والمنشد والمغني الرسمي للمدرسة. محمد كان أيضًا أحد أعضاء فريق المدرسة لكرة القدم، لكنه كان مدافعًا، ولهذا نادرًا ما ساحت له الفرصة ليخلع قميصه احتفالًا بهدف يسجله في المباريات، بينما ينظر لسهر في الدور الثالث مثل حسين. في المقابل، امتاز عن حسين بحسه الساخر، المهذب، وبقدرته على الكلام الهادئ مع البنات، دون أن يدع هرموناته تتحكم فيه تمامًا. ميزة أخرى، ولكن هذه كانت هدية مجانية غير مبررة من حسين، أن الأخير، وكما فعل تمامًا من أربع سنوات، أخبر سهر، التي يحبها هو أيضًا، أن محمد يحبها، ثم رجع إلى الخلف ليشاهد أثر جملته التي ستغير تمامًا تاريخ النسوية في فصل الثالثة ثالث في قرية بالأقاليم.

٢٢

هناك عدة طرق لاختيار مهنة جديدة، أن تفعل شيئًا تحبه، مغامرًا بالفشل وباكتشاف أنك لست بالمهارة التي تفترضها في نفسك، وأن تفعل شيئًا يقول الجميع إنك ماهر فيه بالفعل. جرب محمد الخيار الأول، اندفع للعمل ككاتب إعلانات عندما أخبرته ندى، وهي تسمع شكواه المتكررة من كرهه للهندسة، أنه يصلح للعمل مثلها، وأن قفساته يمكن بسهولة تحويلها لشكل تجاري، يخلصه من الهندسة ويكسبه بعض المال. اختار هذا الطريق، ليس لأنه خشي من أن يفعل ما يحبه، لكنه لأنه لم يكن لديه في أي يوم من الأيام مهنة يتمنى أن يحلم بها، كان متفوقًا في دراسته، وبشكل طبيعي اختار الهندسة كوالده. تمنى بالطبع أن يصبح شاعرًا، لكنه اكتشف مبكرًا جدًّا، ودون حاجة لخوض المغامرة، أنه شاعر شديد الرداءة، يحرف بعض القصائد التي يحفظها، ليس أكثر، هناك نغمة في عقله يمكن رص الكلمات

عليها، ليس إلا. وأكثر محاولاته الشعرية المبكرة نجاحًا، ليست تلك الرومانسية التي كتبها لإيمان أو لسهر، بل قصيدة عامية متهمكة مليئة بالكلمات البذيئة، عن مدرسي المدرسة، والتي في الحقيقة كانت أقرب لشتائم مسجوعة منها لقصيدة. كان هذا منذ أكثر من عشر سنوات، الآن وهو في بدايات الثلاثين، مستقل، دون عمل، ودون رغبة للعودة إلى عمله، لم تكن لديه فكرة كيف يختار مهنة جديدة. لكن بما أنه كاتب، كاتب إعلانات لكن كاتب، فكر أن يكتب رواية، ونظرًا لكل ما سبق، وبمجازات واضحة لدرجة الفجاجة، قرر أن يكتب رواية عن عباس بن فرناس.

٢٣

لا يعلم أحد من أين انطلقت تلك الشائعة بالضبط، أن الناس يمكنهم أن يئبتوا أجنحة إذا استمروا في التدرب على القفز أحيانًا طويلة. انتشرت تلك الفكرة خاصة بين الأطفال، الذين أصبحت تراهم في كل الشوارع يقفزون بأعلى ما يمكنهم. يبدو الأمر طريقًا حتى ترى شابًا ونساءً ورجالًا يفعلون ذلك، لكنها على العموم ظاهرة غير مؤذية. بدأت تنتشر أيضًا أخبار عن تعرض ”الطائرین“ لمضايقات في الشوارع ناتجة عن فضول عام لرؤيتهم يطرون، حتى التجأ الكثيرون منهم لبس معاطف طويلة تخفي أجنحتهم. لا يزال بإمكانك، ببعض التحديق، أن تميز من يمتلك جناحًا من حركة يديه وطبيعة مشيته، وبالنسبة للبعض، من ”أثر النعمة الجديدة“ عليه.

خلعت غادة معطفها وشالها، وعلقتهما على مقعدها في نفس الكافية الذي التقيا فيه المرة السابقة. بعض ريش جناحيها مصبوغ بالبرتقالي، بشكل يلائم بعض خصلات شعرها القصير المصبوغة. لم ترخ جناحيها هذه المرة بجوارها، بل وضعتهما أمامها على الطاولة

بجوار يديها. هذه المرة امتلك الشجاعة ليلمس بيديه جناحيها، شعر برعشتها القصيرة حين لمس جناحها، ابتسمت:

- البقية في حياتك، ربنا يرحمه كان راجل مفيش زيه، آسفة فعلاً
إني مكنتش موجودة جنبك

مهما خفت وجود الأب في حياته، يظل قادرًا، أغلب الأوقات، على إعطائنا وعد الطمأنينة الذي يعطيه الحبل المشدود على الوسط أثناء تسلق الجبال، أننا لن نسقط مرة واحدة، شيء ما سيدخل في اللحظة الأخيرة لإنقاذنا. ربما يكون ذلك الشعور مجرد بقايا لشعورنا الطفولي تجاههم حين بدوا لنا كليي القدرة وبإمكانهم حل كل شيء. الشعور الذي تكسره الحياة بالتدرج، ونحن نكبر، لنشاهدهم وهم ينكسرون أو يرتبكون أو حتى يشعرون بالحرج. نشارك نحن أنفسنا في كسر هذا الشعور، حين نتمرد عليهم مراهقين، محاولين خلع الحبل من وسطنا والانطلاق في مغامرة الحياة وحدنا. تمرد محمد على والده كالجميع، حين اختار نمط حياة مغايرًا، وحين ذهب لخطبة سهر دونه وهو في الصف الأول الجامعي، وحين ترك الهندسة. الآن، لا يمكنه التفلت من حبل لم يعد موجودًا، وعليه أن يتأقلم أنه الآن، بوصية أبيه، هو الحبل الذي يربط أمه وأخته. لكل مرء حبال عديدة، حبال ثخينة تربطه بأقرب أصدقائه، حبال أوهن تربطه بزملائه ومعارفه، حبال تربطه بمن يحبهم. ما يميز حبال الأهل عن كل تلك الحبال أنها، مهما بلغت رغبة المرء في ذلك، لا يمكنه قطعها تمامًا، مهما حاول. وحين تنتهي بنهايتهم، تفقد حرية الانفلات من الحبل، التي حاربت من أجلها طويلاً، معناها. ها هو منفلت إلى الأبد دون حبل والده، يمكن وصف هذا الشعور بأشياء كثيرة، ليس من بينها أنه شعور بالحرية.

- حياتك الباقية، ربنا يرحمه فعلاً. أكيد كان عندك مشاغلك،

والمهم إنك موجودة دلوقتي.

تتمكن بعض العلاقات من صنع حبال ثخينة بما يكفي لتنجو من كل يواجها، تصير أضعف لكنها تظل موجودة، ربما هذا ما يجعل علاقته بغادة غير قابلة للتحلل التام، حبل ما يربط بينهما، قد يفترقان، ويخوض كل منهما علاقة جديدة مع شخص آخر، وقد يحاولان حتى في وقت ما، حين يلتقيان صدفة، أن يتعاملا كمعارف قديمة لا أكثر، لكنهما سيظلان متوترين بفعل إحساسهما بذلك الحبل الذي لا يريد أن ينقطع.

وضعت يدها وجناحها الأيمن على يده تعبيراً عن المواساة، حكّت له عن طيرانها الطويل بين المدن، عن عروض العمل التي تنهال عليها، ”هبقى موديل أخيراً“، ضحكت. تتحدث الانجليزية والفرنسية بطلاقة بحكم دراستها في مدارس أجنبية. لم يعرف كيف يمكنه أن يطرح عليها السؤال الذي يؤرقه، ثم باندفاع:

- شفتي حد الفترة الي فاتت؟

اهتز جناحها على يده هزة قصيرة، ربما فكرت بسحبه استعداداً لمعركة، لكنها لم تفعل:

- أبوه، حد كان معايا في رحلات الطيران الي بنطلعها كل شوية

- بتحبيه؟

- لسه يادوب بادئين نتعرف على بعض، مفيش حاجة جدية. انتا

عامل إيه في الدنيا، سمعت إنك سبت الشغل؟

- آه وبكتب رواية

- واو، رواية مرة واحدة، عن إيه يا ترى؟

لن يقول لها بالطبع إنها عن عالم وفيلسوف وشاعر حاول الطيران

منذ مئات السنين، وخلدت محاولته شعبيًا كبلاهمة انتقصت من حقه
كعالم جاد، وليس مجرد مغامر مجنون، فهي تستطيع بسهولة أن تطير
فعلًا، دون مغامرة، ودون حسابات، وبأجحة حقيقية.

- رواية عن حياة عالم فلك في الأندلس، فتنازيا تاريخية
أخبرها قبل اللقاء أن ندى ستحضر، كي يئد أي احتمالية لحديث
جاد. تأخرت ندى، لكنها ستحضر بعد قليل لتخلق ارتباكًا لم يكن في
حسبان أي من ثلاثتهم.

٢٤

”هنسيب جبل ورا الأوتوبيس لما نيجي نمشي، اللي ميلحقش
الأوتوبيس يمك في الجبل ويحصلنا“، كانت تلك نكتة حسين المفضلة
بصفته المنظم الفعلي لأغلب رحلات المدرسة. النكتة فعلًا أن ماجد
حسن، أحد طلبة فصل أولى خامس، قال له في اليوم التالي لرحلة
الاسكندرية، إنه أتى متأخرًا ولم يجد أي جبل. متماسكًا ودون أن
يضحك أو يبتسم، رد حسين أنه ترك جبلًا فعلًا، ولكن الجبل لم يكن
طويلاً كفاية ليغطي المسافة بين قريتهم والإسكندرية، وأنه، ماجد،
أتى، ليس فقط بعد أن غادر الأتوبيس، ولكن بعد مغادرة الجبل أيضًا،
ووعده: ”المرة الجاية هنجيب جبل أطول“.

في الأتوبيس، الذي غادر القرية دون أن يخلف جبلًا وراءه، كانت
سهر في المقعد السادس على اليمين بجوار الشباك. محمد، كصديق
لحسين، في الصف الثاني، أمامهم ثلاثة مدرسين، وأخصائي اجتماعي،
والسائق. استحوذ حسين على الميكروفون طوال الرحلة، مرة يغني،
مرة ينظم مسابقات، مرة يقول نكتة، وبعقله الذكي كان يرى الجبل
الذي يمتد بين محمد وسهر. راضيًا بهزيمته المتعمدة، طلب من محمد

أن يقول قصيدة. دون تردد، أمسك محمد الميكروفون، نظر لسهر، ثم
تلى قصيدة رومانسية:

”فوق العادة

أني حين أراك

يشتعل حريق القلب

جاء بسمتك المعتادة

فتهب دموع العين

تحاول إخماده

ويذوب الكلم على شفتي

ويحتل الصمت مكانه

وتحاول شفتي إبعاده

ويغمزني صديقي

يقول

مالك تصمت فجأة.. غير العادة

فأجيب بصمت

هذا كله فوق العادة“

عندما انتهى علق حسين وهو ينظر لسهر ضاحكاً ضحكة ذات
مغزى مزدوج ”بس مين يسمع ياعم محمد، سقفوا“. قائد فطري،
دون مجهود، بصوته الجميل، جسده الممشوق الرياضي، وتفوقه
الدراسي، وذكائه الاجتماعي المدهش، بدا حسين لمحمد دوماً لا يعرف
قدر نفسه، يرضى بأقل ما يستطيعه أو يستحقه. توفي والده وهو
طفل في الصف الخامس الابتدائي، ذهب له محمد ليجلس معه، بكى

محمد ولم يبك حسين، كان يحاول أن يكون رجلاً ناضجاً بشكل لا يليق بسنه. لا يذكر محمد أن حسين كان يذكر أباه في أحاديثه، إلا نادراً جداً، مرة وهم يتسلقون إحدى أشجار التوت بعدما هربوا من المدرسة الإعدادية، قال حسين وهو في أعلى فرع في الشجرة، بينما محمد وإبراهيم متولي وعبد الرحمن سعيد متفرقين على غصون أشجار مجاورة أقل ارتفاعاً:

- أبويا الله يرحمه هو اللي علمني أطع الشجر

”الله يرحمه، خلف قرد“، غضب حسين، وقفز من شجرته لشجرة إبراهيم الذي قال ذلك، تعلق بغصن، ثم سقط، وتدخل كل من محمد وعبد الرحمن سعيد ليلجما غضبه، ثم نسي الأربعة الأمر كله فور رؤيتهم لصاحب الأرض وهو يجري من داخل حقله تجاههم ملوحاً بفأسه لمعاقتهم على سرقة شجرته.

في رحلة الإسكندرية، في القلعة، قال محمد لسهر، أمام حبيته السابقة والنسوية المشاكسة إيمان، إنه يريد أن يتزوجها. ردت إيمان ”جواز مين يابوشخة انتا“، تورد خد سهر، وصمتت. لم يكن أبناء القرى الصغيرة وبناتها مؤهلين للتعامل مع تلك المواقف، أقصى مراحل الصياغة وقتها أن يتسم ولد و بنت لبعضهما، هذا إن استبعدنا سيرة ”التعلب“ من الموضوع. كانت الابتسامة فتحة كبيرة بمعايير القرية، حتى أن محمد عرفة، تالته رابع، ظل حديث المدرسة أسبوعاً كاملاً لأنه تجرأ وتحدث مع ريم على هاتف المنزل لمدة أربع ثوان. الأربع ثوان ليست حكماً بأثر رجعي على عرفة أو انتقاصاً من مغامرته، بل تدوين دقيق لحكايته، ”اتصلت كذا مرة، أمها الي كانت بتزد، فبقفل، لما ردت هي قتلها عاملة إيه في المذاكرة، قالتلي الحمد لله بذاكر، وبعدين قفلت السكة“. انقلبت المدرسة رأساً على عقب، وصل لريم

أن عرفة ”فضحها في المدرسة“، أخبرت والدها صاحب ورشة إصلاح السيارات على الطريق، الذي أقسم أنه سيقتل عرفة. اعتذر عرفة لوالدها، ثم اعتذر والده وعمه وذهب بصحبة زوجته لبيت ريم للاعتذار الرسمي، ووعد والد ريم، المعلم سعد، بأنه سيكسر الهاتف على رأس محمد، وهو ما فعله، ثم خصص مدير المدرسة ذو القبضة الحديدية افتتاحية الطابور لمدة أسبوع كامل للحديث عن حرمة الاختلاط. ولأن الأيام نهر لا يتوقف، نسي الجميع كل ذلك بعد أن نفذ ”التغلب“ فعلته التي تضاءل بجوارها كل شيء.

٢٥

اشتهر إبراهيم متولي بـ ”التغلب“ منذ أن أحرز سبعة أهداف منفرداً في المباراة التي جمعت بين فريق المدرسة لكرة القدم والمدرسة المجاورة، ولا يمكن الفصل هل اكتسب إبراهيم صفاته الثعلبية بسبب اسم الشهرة في محاولة منه ليكون خليقاً بهذا اللقب، أم أنه كان وصفاً مبكراً صائباً من مدرس التربية الرياضية الشاب للمدرسة الأولى، الذي أقسم إبراهيم برحمة أمه أنه عرض عليه الانتقال للمدرسة الأخرى، واعدًا إياه أنه سيغششه بنفسه في كل الامتحانات مقابل أن يلعب لفريق المدرسة، في خطة طموح ليكسب بطولة المحافظة لكرة القدم.

أسمر، طويل، نحيف، سليط اللسان، متهمك، أول من علمهم فتح المطواة قرن الغزال التي سرقتها من أخيه الأكبر أسطورة المدرسة ”محمد متولي“، مشاكس، وظريف، ولطالما أخرجهم من المواقف المحرجة التي أملاها عليهم إحساسهم الخاطئ بالنضج المبكر. يكذب بثقة وثبات، أخبر مرة مدير المدرسة، الذي قفشهم وهم يتسلقون سور المدرسة ليحضروا مباراة اتفقوا عليها مع فريق من القرية المجاورة،

أنهم شاهدوا ولدًا يضرب فتاة صغيرة، وأنه رآها بعينه تنزف، وأنهم ذاهبون لنجدتها. كان غاضبًا، ومتحمسًا، مصدقًا قصته التي فبركها لتوه، حتى أن مدير المدرسة ربت على كتفيه محيياً إياه على شهامته، وقال له إن الأصح أن يخبره هو أو أحد المدرسين ليتدخلوا، قاطعه التعلب بنفس ثباته:

- لازم نلحق البت لا تموت

نادى المدير مدرسين آخرين وأخبرهم أن يذهبوا مع فريق التسلل لنجدة الفتاة، بحثوا في كل الشوارع دون أن يجدوا لها، بالطبع، أي أثر، استمر التعلب في غضبه، حاول المدرسون تهدئته دون جدوى، اكتسب التعلب بسبب هذه الحادثة احترام المدير، الاحترام الذي سيخفف عنه العقاب حين قفشه أستاذ مجدي مدرس اللغة العربية، وهو يطلع مجموعة من الزملاء على إحدى المجلات الإباحية التي كان يبيعها. لم يصدق أي مدرس قوله إنه يحاول تحسين لغته الإنجليزية. التعلب أيضًا كان عزوة الشلة، يكفيهم في أي خناقة أن يصرح أنه أخو الأسطورة محمد متولي حتى تنتهي الخناقة قبل أن تبدأ، وإن بدأت، فهم متيقنون أنهم سيتمكنون من الانتقام بسرعة، هذا ما يعرفه كل تلاميذ المدرسة. الجانب الذي لم يعرفه عن التعلب سوى أصدقاؤه المقربون كان ميوله الفنية، ولم يعرف حتى أعضاء الشلة نفسها من أين اكتسبها أو تعلمها، فوجئوا به مرة، وهم في بيته، يريهم لوحتين، الأدق رسمتين على ورق رسم طويل ورخيص، بالقلم الرصاص، إحدهما رسم لفارس يشبهه تمامًا، على حصان أبيض، يمسك بيده اليمنى مطواة، وباليسرى يرفع رقبة فارس خصم يشبه مدير المدرسة. اللوحة الأخرى تصور أمنية وهي تقف مستندة إلى بوابة المدرسة بدلًا، تلبس فستانًا قصيرًا، طويلًا جدًا بالمعايير المدينية،

يظهر قدميها، وترتدي حجاباً يظهر بعض خصلات شعرها، مع مبالغة كاريكاتورية، ولكن يسهل تفسير منشأها، لمنحنيات جسدها الناضج، وتدخن سيجارة، فيما يقف التعلب يلعب بالمطواة. ”لو أهلها عرفوا بالصورة دي، هيقفلوك“، أخبره حسين، نصحه عبد الرحمن بتمزيق اللوحة حالاً، بينما كان رأي محمد أنه على الأقل يجب ألا يريها لأي أحد غيرهم تجنباً لما لا يحمد عقباه، فأمنية، في النهاية، كمحمد متولي، إحدى أساطير المدرسة.

٢٦

تكنم قوة مشاعرنا في الإعجاب الآخرين، سواء كانوا أصدقاء أو عشاق، في افتراض ضمنى بعدم تكراريتهم، أو على الأقل بعدم تكرارية ما نراه مميزاً بهم. رأى محمد زميلته أمنية في أول يوم له في مدرسة الثانوي، بجواره شريف القط أحد زملائه ”النسور“، ترتي حجاباً لا يسمح لشعرة واحدة منها بالظهور، وقيماً واسعاً يجاهد كي لا يظهر فتننتها دون نجاح كبير، وجيبة طويلة، بها فتحة قصيرة جداً أعلى القدم لتسهل الحركة، تحتها شراب طويل ليقتل أي احتمالية ظهور لسابقها. ”فتحة دي وللا كتب كتاب“، قال شريف لأمنية، لم تلتفت، أعاد شريف جملته، فالتفتت وابتسمت ابتسامة مربكة. وصل إعجاب محمد بشريف في هذه اللحظة إلى أعلى درجاته. في الفسحة سيفقد شريف إعجاب محمد للأبد حين يرى الأخير أنور البحيري يقول نفس الجملة لأمنية وتبتسم له نفس الابتسامة، انضم للثنتين محمد البحيري في نهاية اليوم الدراسي، حين قال نفس الجملة وفاز بنصيبه من الابتسامات. كما يعلم الكل الآن، لم تكن هذه الابتسامة تحمل وعداً أكيداً بالقرب.

في طابور اليوم التالي، كان طلاب الفصول كلها ينظرون للثلاثة

نور: أنور والبحيري والقط. أنور يده في الجبس، البحيري فقد سنتيه الأماميتين، وجه القط يحمل لاصقة للجروح على يمين فمه، أخذ ثلاث غرز لتخييط الجرح. أما أمنية فقد ارتدت للمرة الأولى في تاريخ مدرسة الثانوي المعاصر بنطلوناً ضيقاً، ولم يجرؤ أحد، في نفس اليوم، أن يفتح فمه بكلمة، بل وارتعد كل من ملحته أمنية ينظر إليها.

في القرية الصغيرة، الكل يعلم شهرة عائلتها التي يكفي اسمها وحده للتدليل عليه: "عائلة الحانوتي". أخو أمنية الأكبر في السجن منذ سنة كاملة، أبوها صاحب المقهى الوحيد في القرية وبطل جميع ملاحم العائلة، إخوتها الثلاثة الآخرين مسجلين خطر، عمها توفي في المعركة التاريخية بين العائلة وعائلة من القرية المجاورة، إثر نزاع على ري الأرض. الثلاثة، أنور والبحيري والقط، كانوا يعلمون ذلك تماماً قبل أن يندفعوا بحماقة لمعاكستها، وحده شريف الذي قرر عدم الاستسلام بسهولة، وبعد الفسحة حتى لزملائه أن أمنية قالت له "ألف سلامة"، هذه علامة حنان أكيد. وبنفس الغباء، قرر بعد المدرسة أن يذهب ويقف أمام بيتها، ليختلس نظرة إليها وهي تنشر الغسيل بشعرها، نجحت خطته فعلاً ورآها، وفي اليوم التالي، كان يقف في الطابور فخوراً وهادئاً، ويزين وجهه جرح جديد.

٢٧

وقف عباس بن فرناس هادئاً أمام القاضي، وحوله الشهود له وعليه، اتهمه خصومه بالشعوذة والسحر، وبالطبع، بالزندقة، بسبب تجاربه التي يجربها في بيته، وربما بسبب علاقته المتينة بقصر الحاكم الأموي عبد الرحمن بن هشام في الأندلس. من أصول أمازيغية، مهتم بالفلك والطب والفلسفة والشعر، أحضر القاضي الأمير الأموي ليشهد بناءً على طلب بن فرناس. يوم مشهود، وربما قال ابن فرناس لنفسه،

بينما ينظر لخصومه: السحر والشعوذة؟ لم تروا شيئاً بعد.

٢٨

ربما يكون هناك شيء ملهم في الفشل كما هناك إلهام للنجاح،
بماذا فكر عالم اللغة العربية المعتبر إسماعيل بن حماد الجوهري، وهو
بعد أكثر من مائة عام على وفاة عباس بن فرناس هناك في الأندلس،
يصعد سطح داره في نيسابور ببلاد فارس، يرتدى جناحين من الخشب،
وينادي في الناس: لقد صنعت ما لم أسبق إليه وسأطير الساعة، ثم
يسقط قتيلاً؟

على الأغلب نفس طريقة التفكير هي ما دفعت أنور والبحيري،
بعدما رأيا جرح شريف الجديد، أن يقفا أمام بيت أمنية لينالا ما ناله.
وبغض النظر عن أنهما لم ينلا حظ رؤية شعر أمنية الأسود الطويل،
حسب وصف شريف، فإنهما نالا جراحاً جديدة، وقفا فخورين بها
في الطابور، ومن هنا بدأت وفود الطلاب إلى بيت أمنية طيلة العام
الدراسي. كل يوم ينضم طالب جديد، بجرح في وجهه أو يد مكسورة
أو لكمة في عينيه، إلى زمرة الفاشلين الفخورين، حتى أنه في ذروة
انتشار هذا الطقس، أصبح نادراً أن تجد طالباً دون جراح ظاهرة،
وكلما ازدادت الجراح، ازداد التفاف الطلاب حول شريف كأب روعي،
وازداد سطوع أمنية في المدرسة، حتى قرر مدير المدرسة، ذات يوم،
أن يضع نهاية لهذه الملحمة.

٢٩

في المدرسة المشتركة في القرية الصغيرة، حيث لا مدرسة ثانوية
أخرى، وحيث كل شخص يعرف عائلة الشخص الآخر، فرض مدير
المدرسة قبضته كحاكم حديدي، حيث مغامرات المراهقة وعواطفها

تواجه بالعقاب الفوري. يحب الحديث الطويل، حتى أن محمد لا يذكر الآن أين بالضبط كان يجد مدير مدرسة ثانوية بقرية صغيرة بالأقاليم مواضيع كافية لخطبه التي تطول فتأكل الحصاة الأولى ونصف الثانية في أغلب الأحيان، وتلتهم الحصاة الثالثة في الأوقات العصيبة، مثل إعلانه نهاية ملحمة أمنية، وتعليقه على فعلة التعلب، وقراراته الصارمة بعد معركة ”وجبات التغذية“. في تلك الأيام، كانت ”وجبة التغذية“ التي توزع على التلاميذ عبارة عن برتقالة ورغيفي خبز وقطعة حلاوة طحينية وقطعتي جبنه مثلثات. عبد القادر التلاوي، طالب تالته خامس، كان من الطلاب المسؤولين عن توزيع التغذية، وانتشرت أخبار أنه يحجب قطع الحلوى الطحينية لصالح فصله. انتفض محمد عبد الحميد، من طلاب تالته سابع على ذلك، واشتبك مع عبد القادر، ثم اتفق الاثنان أن يؤجلا اشتباكهما، كالرجال، إلى نهاية اليوم الدراسي، ويتقابلا في ملعب البلدة الكبير. انتشر الخبر، تضامن فصل كل منهما مع زميله، وجذب كل فصل، بعلاقاته المختلفة، بعض الفصول الأخرى إلى صفه. وحين رن جرس المدرسة إيذاناً بالخروج، خرجت غالبية الطلاب، ولاداً وبناتاً، من جميع الصفوف إلى الملعب ليشهدوا الحدث. في البداية كان الظن أن المعركة ستكون بين الطالبين ويكتفي البقية بالتشجيع، لكن وجود البنات فاقم من هرمونات الولاد، فقرر كل شخص قادر على المعركة أن يختار أحد الأطراف. بنزعته البطولية والفروسية تزعم حسين، رغم أنه يصغر كلا المتعاركين بسنة كاملة، جانب أنصار محمد عبد الحميد، وبشكل تلقائي انضم إليه التعلب والقط ومحمد الذي كان له سبب إضافي لاختيار صف عبد الحميد، بينما كان على رأس أنصار عبد القادر التلاوي واحد من القلائل الذين شهدوا موقعة الكوبري

وبطل معركة المطاوي المفتوحة، حماده الغول. وقفت البنات على جوانب الملعب، الذي لم يكن أكثر من قطعة أرض ترابية واسعة، واصطف الطرفان كأنهم في إحدى المعارك القديمة، دون سيوف وخيول، وباتفاق جماعي صامت دون مطاوي أو أحزمة. لم يعلم أحد طقوس بدء المعركة، كيف سيشتبك الحشدان معًا، ولذا تفاوض وفد بقيادة عبد الحميد وحسين مع وفد بقيادة عبد القادر وحماده، على قواعد الاشتباك: رجل لرجل، لا يشتبك اثنان ضد واحد، ولكل اختيار غريمه في المعركة. أما الاستسلام فبسيط، كل من يريد الاستسلام عليه أن يقول أنا خسرت. اقترحوا في البداية أنه لو انتصر جيش عبد القادر يكون له كل الحلوى الطحينية والبرتقال طيلة الفصل الدراسي، ولو انتصر جيش عبد الحميد يكون له ذلك. وبعدما شرح لهم حسين استحالة تطبيق ذلك، أصبح الاتفاق أن انتصار جيش عبد القادر يعني بقاء الوضع كما هو عليه بزيادة البرتقال لفصله فقط، وخصم البرتقال من فصل عبد الحميد، ولو حدث العكس يحرم جيش عبد القادر من الاثنين. ولمزيد من الشفافية والنزاهة، اختار الطرفان حكمين ليكونا شاهدين على الانسحابات وتطبيق القواعد: أحمد الفار، تالته أول، ومحمود الأشول، تانية سابع. وحين تدخلت إيمان باقتراح أنها يجب أن تكون الحكم، كتم الجميع ضحكاتهم.

٣٠

يسير الإنسان وهو يلاحق مئات الحبال في يده، حبال الصداقة، والحب، الأهل، العمل، الطموح، المغامرة. في طريقه يجد حبالاً يجذبه بعيداً عن بقية الحبال، فيكون عليه الاختيار. ليس من السهولة أن تترك حبالاً يفلت من يدك وأنت تلاحقه سنين طويلة، ماذا ستفعل بكل هذا الطريق الذي قطعته إذن؟ تلك الفكرة تجعل البعض يمسكون

بقوتهم حبلاً لا يريدونه لمجرد أنهم أطالوا إمساكه، البعض ينسى كل ذلك الطريق كأنه لم يكن ويتك الحبل، البعض، متفلسفاً، يقول إنه لولا ملاحقته للحبل من البداية لم يكن ليصل إلى ما وصل إليه. ولا يعفيه ذلك من نغزة الحنين.

٣١

تبدو صداقات محمد القريبة له كأنها سباق تتابع، كل صديق مقرب، وقبل أن ينسحب ويتك الحبل، يسلمه لشخص آخر. هكذا أعطى حسين الحبل لغانم.

لم يكن غانم شخصية قيادية كحسين، وبدا على الداوم لمن لا يعرفه كشخص تقليدي تماماً، لكن هذه التقليدية الظاهرية نفسها كانت تمدّه بالثقة في العالم، بأنه يعرف قوانينه، وعازم على قبولها، كل شيء مفهوم. وعلى عكس حسين الذي يواجه الدنيا بشجاعته وجاذبيته الشخصية، أو التعلب الذي يواجه المآزق بخياله الواسع، كان غانم يواجه المشاكل على أرض الواقع لأنه يعرف دوماً حلها الحقيقي، ولو لم يعرف الحل، فهو يعرف شخصاً آخر من الممكن أن يعرفه. ثباته على أرض الواقع هو ما أعطاه الهدوء الكافي ليقترح على محمد أن يذهب معه لخطبة سهر، بعدما رفض والد محمد الذهاب قائلاً له في ضجر "متصغرنيش معاك في لعب العيال دا".

لبس كلاهما بدلة كاملة بربطات عنق أنيقة، تعطرا، حمل محمد باقة الورد من المحل التي جاء بها غانم في عربته من القاهرة، ومعها علبه الشيكولاتة التي حملها هو، ودون أن يحصل على موعد مسبق. في الحقيقة، أخبر محمد سهر أنه سيأتي في هذا الموعد، ولكن أباهما رفض أن يلتقي بمحمد دون أبيه، ويجدر هنا التذكير بأن غانم صحيح

واع بأهمية الأعراف الاجتماعية، إلا أنه أيضًا شاب تسوقه حماسته أحيانًا. طرقا باب بيت سهر، فتحت لهما أختها سهر دون حجاب، تعرف محمد جيدًا، وتعرف لماذا جاء، جرت سريعًا إلى الداخل لتضع حجابها وهي تقول بصوت عالٍ ”بابا، بابا“. دخلا، وفتح كل منهما أزرار البدلة، دخل الحاج أحمد، بقامته الفارعة وجسده الضخم، في ملابس الضيق، سلم عليهما في امتعاض، ثم ألقى بجسده على الكنبه بقوة كأنه يعاقبها. للمرة الثانية خلال عامين فقط يجد نفسه يجلس نفس الجلسة بنفس الغضب، ودون أن يخفف من حدة نظرتة المحترقة لمحمد، قال ”خير“. في هذه اللحظة، وبينما يهم محمد بالكلام، أدرك غانم الخطأ الذي وقع فيه، لكنه لم يدرك مدى فداحته. وقع التربو، دون مبالغة، من الضحك حين أخبروه عما حدث.

٣٢

لماذا يسمى محمود حامد بالتربو؟ لا يعلم أحد، تعامل معها الجميع كحقيقة، لعلها شهرة اكتسبها من قريته ثم أتى بها مفتخرًا. من هؤلاء الذين تعج الجامعات بهم وقد صمموا مسبقًا أن يخوضوا كل مغامرات حياتهم خلال هذه الفترة، وربما لأنه شديد الذكاء، أو شديد الغباء حسب معيار الحكم، فقد أحاط نفسه بمجموعة من العقلانيين الذين يحسبون حساباتهم كاملة قبل الإقدام على أي شيء. شديد الذكاء إن اعتبرنا انه إذن وضع نظامًا للأمان يكبت نزعتة المغامرة فلا يهلك نفسه، وفي نفس الوقت يجعله خوفهم يحظى بسهولة بلقب مغامر الشلة. شديد الغباء، لأنه بهذه الطريقة لن تكون حياته الجامعية مغامرة بالدرجة التي يتمناها.

بدأ بمغامرات بسيطة، يتغيب عن المحاضرة مثل أن يتسلل لغرفة الدكتور ويكتب اسمه في الحضور، ثم خطأ خطوة أخرى أهم، حين

كان أول من بادر منهم للحديث مع البنات. وتحديداً، لأن الحياة دومًا لها منطقتها الخاص، كانت أول من تحدث معها مروة، ثم بفضل اجتماعية المرحلة أصبحت شلتهم، وهو أمر نادر الحدوث في المجموعات التي تبدأ عضويتها بذكور فقط، متساوية جندريًا، محمد وغانم والتربو، ومروة وعيير وأماني، قبل أن ينضم إليهم الترولي ليرجح كفة الذكور حتى حين. محمد في مرحلة النقاهة من سهر، أماني أكثر حدة، وجمالًا، من أن يمتلك أي من محمد وغانم والتربو الشجاعة لطلب مواعدها، من الفتيات اللاتي تدرك من النظرة الأولى أن جميع الدفعة ستقع في حبها، ولا أمنية في زمانها، وأن عشرات الشعراء متوسطي الموهبة سيسكبون كل موهبتهم في كتابة القصائد لها، قبل أن يكتشفوا محدودية موهبتهم وتقذفهم الحياة لدروب أكثر منطقية من الشعر. وربما من حقيقة أنه كُتب عليها أن تحترف الرفض بسبب كمية طالبي القرب منها، اكتسبت أماني حدتها القاسية. يمكنك بسهولة، ببعض البصيرة والتجربة، أن ترى المستقبل، الشاب المشرق الواثق في نفسه الذي يتقدم إلى أماني بعد أن وضع خطته، ستتكرر أحلامه بعد أقل من أربع دقائق. المعيد الذي يدللها، تعلم أنه سيعرض عليها الزواج بعد أقل من شهر، وسترفضه. حتى الترولي، ملك الكوميديا، ستسقط قفشاته صريعة على الأرض، قبل أن يستسلم للحقيقة ويقرر الانضمام للشلة كأحد أفرادها، وليس كحبيب لأماني. كانت "أماني" جوهرة الشلة، امتيازهم، مكن شعورهم الجماعي بالتفوق على بقية زملائهم، رسولتهم للتفاوض مع الدكاترة لتخفيف الامتحانات، برهانهم الساطع في وجه من يقلل من جمال بنات هندسة، تدريبهم الأقصى على لجم هرموناتهم، والأهم طبعًا من كل ذلك، بوابتهم الواسعة لعالم المغامرات.

سيذكر محمد بعد سنوات طويلة، وبينما يتلقى اللكمات في وجهه وجسده، ويسمع طرقعة الكراسي المتكسرة، في مدينة ساحلية، وحوله تصرخ غادة وندى، أماني بالذات. حين ظهر المنيأوي، بهدوء وثقة وحوله اثنان لا يعرف أيًا منهما، وأمسك برقبة من يضرب محمد، ودون أي ملحّة غضب أو تردد، طلب منه بطاقته، ثم طلب بطاقات الجميع بما فيهم محمد. ظل مرافقه صامتين لا يتحركان إلا حين يأمرهما بجمع البطاقات. حدثت ندى وغادة نوعية المسرحية التي يؤديها فصمتًا، أحضر له أحد مرافقيه كرسياً ليجلس، أخذ يلعب بالبطاقات في يده ويتحدث في الهاتف إلى شخص ما، يمليه بيانات البطاقات. أنزل الهاتف عن أذنه وسأل محمد عن سبب المعركة، أخبره، طلب هاتف المتعارك الآخر الذي يحمل الصور، تصفح الصور، ثم قال كأنه يحدث نفسه، جناية انتهاك خصوصية وشروع في قتل وترويع الآمنين. ارتبك المتعارك، وأخبره أنه مجرد سوء تفاهم. تجاهله المنيأوي وقال للشخص الآخر على الهاتف ”لا دا موضوع كبير يا باشا، ابعثلي عربيتين حالاً“. ترجاه المتعاركون أن يلم الموضوع، رفض، وبشجاعة مكتسبة اندمجت غادة وندى في المسرحية وطالبتا المنيأوي بعدم العفو عن أحد. وبعد جدال طويل من الجميع أخبرهم المنيأوي، وهو ما زال محتفظاً بهواتفهم، بالانصراف الآن بعد أن يقدموا اعتذارهم لغادة ومحمد، ففعلوا ذلك. ”التليفون دا دليل دلوقتي، مقدرش أرجعه ليكو، هحاول ألم الموضوع، لكن عامة بياناتكم معايا، ممكن تلاقوني طالب منكم الحضور عندي في خلال اليومين الجايين“، انصرفوا فعلاً، وحين زال كل أثر لأشباحهم من الطريق، قام من الكرسي، وقدم مرافقيه لأصدقائه الثلاثة، ”دكتور أحمد قاسم، ودكتور إسماعيل

صبحي، عيون أعيان فرقة مسرح طب القصر العيني“. ابتسم محمد، وفكر أن التعلب كان سيفرح بمشاهدة هذه المسرحية وستكون له العديد من التدخلات الدرامية لتحسينها، سببت له هذه الفكرة كآبة لحظية.

٣٤

تجاوز الوقت الحصة الثالثة والمدير مستمر في كلمته، التلاميذ جلسوا على الأرض مفترشين كتبهم في وجوم، والتعلب غير موجود ليضحكهم بتعليقاته رغم أن الحديث كله يدور حوله. نهر ساكن من الطلبة، كالنهر الذي علمهم فيه التعلب العوم. بعيداً عن المدرسة، وسط الأراضي الزراعية تسللوا بقيادته، ثم خلعوا ملابسهم، ونزلوا. يذكر محمد شكل أشجار الموز المحيطة بمكان نزولهم، ومرأى السيارات على الكوبري البعيد. حكى لهم التعلب أنه يجيء هنا كثيراً وحده ويستمتع بالعوم، حكى البعض عن أسطورة النداهة الجميلة التي تسكن في النهر، كتم الجميع خوفهم واستمروا في المجيء والعوم، وسرقة "أسبطة الموز" من الأرض المجاورة. الموز ما زال أخضر صلباً، لكن التعلب يقول، وهو يقطع إحدى السباطات، إنه يستمر في النضج في البيت. لم يجرب محمد ذلك، ولا يزال حتى الآن غير متأكد من المعلومة، وحتى لو علم بعدم صحتها، كيف يخبر التعلب الجالس هناك في الحياة الأخرى، بخطئه؟ بمغامرته الأخيرة لم تجد من يحك عنها، كان وحيداً، "وندهته النداهة".

اقتربت الفسحة والمدير مستمر في عظته عن الموت والحياة، خلاصة فلسفته يلقيها إلى الطلبة الواجمين الحزاني، أصوات بكاء الطالبات الواضحة حفزت بكاء الطلبة، وشجعهم بكاء حسين على عدم كبت دموعهم، حتى عبد القادر التلاوي بكى.

مع كل من حسين ومحمد، وقع عبد القادر في حب سهر. زُهد الأول الغريب الذي جعله يعترف لسهر بحب محمد لها دون أن يعترف بحبه هو، أخرجته من المنافسة. بقي عبد القادر، الضخم محب المعارك الذي تتعجب للوهلة الأولى، كيف يمكن لهذا الإنسان أن يسقط فريسة للحب بسهولة، وفي حب من؟ ليست أمنية الأثني الأسطورية، ولا مها المقتحمة سليطة اللسان، التي حكى لهم التعلب مرة أنه قبلها مستحلًا إياهم بعدم إخبار أي أحد، ولا إيمان النسوية التائهة في الأرياف، بل سهر الوديعه الهادئة.

علم محمد بحب عبد القادر في الوقت نفسه الذي علمت فيه سهر، وهو الوقت نفسه الذي علمت فيه المدرسة كلها، إذ أنه أعلن عن حبه، مختطفًا الميكروفون من يد رئيس الإذاعة المدرسية، أحمد جودت، "أنا بحبك يا سهر". توترت الأجواء لوهلة ثم علت الضحكات، بكت سهر، وفصل عبد القادر أسبوعين من المدرسة، ظل خلالهما ينتظرها كل يوم خارج المدرسة، صامتًا كوحش مهزوم. بعدها بشهر سيذهب بصحبته والده لخطبتها، لينهزما معًا. تغيب بعدها أسبوعًا عن المدرسة، ثم عاد. السايبر الجديد، الأول في القرية، كنس مأساته العاطفية من طاولة الأحداث المهمة في المدرسة.

هناك لحظات مفصلية في الحياة تدرك فيها أنها لن تعود كما كانت قبلها، افتتاح السايبر كان إحدى هذه اللحظات بالنسبة للمدرسة. يمتلك القليلون في القرية جهاز كمبيوتر، عدد أقل يستخدمون هواتفهم المنزلي للاتصال بالإنترنت، أقل منهم من يتصفحونه بحرية للبحث عما

يريد كل المراهقين البحث عنه. السايبر كان ثورة المحرومين. يمتلك السايبر الأستاذ محمد الفار، والد أحمد الفار، تالته أول، يجلس على أحد الكومبيوترات يراقب ما يفتحه كل مراهق تسوقه هرموناته، ثم يطرده فوراً من السايبر إن حاول الوصول إلى ما يريد. يتبادل معه الجلوس في السايبر ومراقبة المراهقين أخوه محمود الفار. هذا النظام الصارم للمراقبة والتوجيه وحفظ الأخلاق كان به ثغرة واحدة، حين يذهب أستاذ محمد الفار لعمله الإداري في إحدى القرى المجاورة مرتين في الأسبوع، ويكون أخوه محمود لا يزال في عمله أيضاً، هنا يتألق أحمد الفار وشريف القط، مصادفة لغوية ليست مقصودة.

يومي الاثنين والأربعاء يتسلل عشرات الطلبة من المدرسة بعد الفسحة للذهاب إلى السايبر بقيادة الفار، أمامهم ساعات قليلة قبل وصول الفار الكبير. القط، الذي يدخل على الإنترنت من منزله، يوجه الطلبة للمواقع المرغوبة، يتحلق كل ستة أو سبعة حول جهاز واحد. مرة واحدة حدث أن تعطلت جميع الكومبيوترات ما عدا واحد فقط، فتحلق الجميع أكثر من أربعين شخصاً حول جهاز واحد، يحاول كلهم مشاهدة ما يحدث، حتى أن أحد الواقفين بالخلف كان يصرخ عاليًا "هو فيه إيه تحت الحصان، أنا مش شايف"، فيتبرع القط بقص ما يحدث بصوت عال. استمرت هذه الثغرة مدة شهر ونصف كاملين، حتى قفشهم في مرة أستاذ محمد الفار، الذي عاد مبكراً من عمله ليشهد الفضيحة: مراهقون كثر متحلقين حول كل جهاز، ابنه جالس أمام جهاز وحده يشاهد ما يشاهدون. وقف أحمد الفار جامداً في مكانه، حاول الجميع إغلاق ما يشاهدونه والتظاهر بمشاهدة شخص آخر، شريف القط فصل الكهرباء عن جهازه، وكذلك فعل حسين ومحمد. لوهلة بدا للجميع أن الأمور يمكن حلها، قبل أن

يدخل عليهم المدير بنفسه في السايبر، معه ثلاثة مدرسين آخرين. لم تكن عودة أستاذ محمد الفار إذن محض صدفة. مثل لحظة افتتاح السايبر، كانت لحظة دخول المدير لحظة لن تعود الأشياء لما قبلها أبداً، ومثلهما لحظة دخول التربو إلى السياسة.

٣٧

تخطئ الأحكام المسبقة كثيراً، هي مخزون الحكمة الشعبية التي قد يهدر الزمن بصيرتها، لكنها تصيب كثيراً أيضاً. التحق غانم ومحمد بتخصص هندسة مدنية، غانم ليعمل بشركة أبيه، ومحمد لأن مجموعته في السنة الإعدادية في الكلية لم يترك أمامه خيارات كثيرة. التربو، بمصادفة لغوية أخرى، التحق بقسم الميكانيكا، التروولي بقسم الاتصالات، أماني، كما قد يتوقع أي أحد يعرف تقسيمات كلية الهندسة الجندرية، قسم العمارة، بعد فشل غانم ومحمد في استمالتها لقسم المدني، محاججين بأن القسمين متشابهين وليكونوا مع بعضهم البعض، "لا أنا مش هقف تحت الشمس وفي المواقع". هكذا، ورغم ثبات شلتهم الأصلية، تفرعت شلل أخرى من كل قسم. غانم ومحمد ضما إليهما بعض المحمدات الآخرين، محمد محسن ومحمد بحار، أماني ضمت إليها أحمد فرشة، والفرشة اسم شهرته، وكذلك هدى وماجدة، والأكثر أهمية للمستقبل: سمر. التربو انضم إلى الشاكوش ومسمار، وهما اسما شهرة في مصادفة لغوية ثالثة. حاول التروولي محاولة جدية أن يغير الاسم ليكونا المطرقة والمنجل، لأنهما أيضاً أعضاء في المجموعة اليسارية في الكلية. وأخيراً، وليس آخرًا، انضم التروولي إلى حسام مدحت، الذي يطلب من الجميع أن ينادوه بالباشمهندس حسام ويناديه التروولي دومًا بالدكتور، وسلوى غربية، أو كما يناديها التروولي وهو ينكز التربو، باسمها كاملاً "سلوى

مؤامرة غربية“، الذي تم اختصاره بالوقت إلى مؤامرة غربية، المؤامرة الغربية الوحيدة التي سيسقط التراب في فخها.

٣٨

في الجامعة، وجد محمد نفسه في الغابة للمرة الأولى، وحيداً مندهشاً، سيحاول بعدها أن يتذكر لحظات من طفولته تشبه وجوده في الغابة، لكن إحساسه الحاسم بها كان في الجامعة. بعد انقطاع حبله مع سهر، ظل في غرفته أكثر من أسبوعين لا يخرج منها، حتى أن والده ابتلع شماتته في الفشل المتوقع الذي حذر منه لهذه القصة وحاول مواساة ابنه، ”البنات كثيرة، والحياة لسه قدامك واسعة، وهتكبر وهتفتكر القصة دي وتضحك“. يعلم محمد صحة كلام والده، لكن الغابة لا تهتز لقوة المنطق، ولا تختفي بمجرد إثبات وجودها في المكان الخطأ. توفر الغابة تربة خصبة لنمو متسارع ومدشش لنباتات فكرية صغيرة. المواقف المربكة في الحياة الاجتماعية، التي تموت نبتتها في الإنسان بعد أقل من ساعة، تصير شجرة كبيرة تثمر أفكاراً عن الفشل الاجتماعي وعدم القدرة على معايشة الناس والبقاء وحيداً للأبد، درجات سيئة في امتحان غير مهم تصير أفكاراً عن الفشل الدراسي، وعدم القدر على إكمال التعليم، والمستقبل المهني المظلم، انقطاع حبل سهر يصير علامة مؤكدة على الحظ السيئ في الحياة وانعدام الأمل في أي شئ. تخلق الغابة عالماً بديلاً له منطقته الخاص، الذي يبدو للمحاصر داخلها بأنه المنطق السليم الوحيد، وأن من هم خارج الغابة لا يرون الأمور على حقيقتها كما يراها هو، وكلما ظل محاصرًا داخلها فترة أطول، تغذت على أفكاره وتوسعت أكثر واستطالت أشجارها.

أخته، رضوى، بذكاء الفتيات الصغيرات تسرد عيوب سهر، أمه

تخبره كل ساعة بفتاة جديدة أجمل يمكنه خطبتها، أبوه يقول له أن ينزل مع أصحابه يفعل شيئاً ما دام لا يريد الذهاب للجامعة، أصدقاؤه يتصلون به كل يوم مقترحين دوماً مغامرة جديدة. لكن الغريب في الغابة أن المرء يحتاج لكثير من الفكر والمجهود لسمع كل هذه الأصوات، وليعثر على امتدادات حبالها ليتمكن من مراوغة محاصرته، ليتمكن من إنبات زهرة ما في قلبه تحته على المقاومة، زهرة لا تنبت في الغابة بسهولة، وتحتاج لتجميع كل قوتك لجعلها تكبر، وحين تكبر، ستساعدك على محاربة الغابة، وتضع في يدك أطراف الحبال التي ستخرجك منها، وهي عملية سيضطر محمد لخوضها كثيراً في حياته.

٣٩

في البداية، تبدو لنا حبال حياتنا القليلة جداً متماسكة ممتدة، يمكننا الحدس بنهايتها، ثم تكثر وتتشابك بعضها ببعض. يوهن الزمن بعضها، ويقطع البعض الآخر، حتى أننا في لحظة ما قد نكتشف أن أغلب الحبال التي نمسكها جديدة، وفي كل مرة نكتشف فيها ذلك، نقع في نفس الخطأ، ونعتقد أننا سنلاحق الحبال الجديدة للأبد، فينقطع بعضها ونمسك بحبال جديدة أخرى. يضعف جبل حسين وعبد الحميد، وتختفي حبال القط والفار وعرفة وسهر وأيمن وإيمان وأمنية وحكيم والفرخاني، يظهر جبل غانم والتربو والترولي وأماني ومحسن وبحار، ينقطع أغلبها ليفسح مكاناً في قبضة اليد لمحمد طه وندا ومحمود وعمرو وإسماعيل وعبد الرحمن ويمنى، ثم تنقطع هي الأخرى فيمسك محمد بحبال صفوت ومها وصالح وآدم وسهير ودينا، وتنفلت، لتظهر غادة وندى وحربية وأسامة والاسطى ويحيى ومنير ورقية وجمال وشرييني وياسر ودعاء وإبراهيم وعلاء وصبحي ومنصور وأنور وبلال وعادل وإسراء. بعض الحبال تشدنا إليها بأقصى

قوة لحظة انقطاعها، قرب حميمي، كاحتضان أخير، لا تحتمله. بعضها يتسرب من الأيدي رويداً رويداً، حتى أننا نأخذ وقتاً كي ندرك انفلاته، وربما هذا ما يجعل اللقاءات المفاجئة بمن أفلتت حبالهم من أيدينا مربكة، تحتضن أحدهم بود حقيقي وتتعاهدان على اللقاء مجدداً، مدركين تماماً أن هذا اللقاء لن يحدث، فلم يعد هناك حبل يربطكما. بعض الجبال ينفلت بقوة فجأة فيجرح أيدينا، الثعلب ودينا والترولي وأماني، أين أماني فعلاً؟

٤٠

رأى محمد أماني آخر مرة في فرح غانم وسمر، لم يتوقع أي منهم حضورها. جلس ثلاثتهم ومعهم التربو متحفزين، ألتهتهم قليلاً المؤامرة الغربية وهي تشعل القاعة برقص شديد البراعة والحسية الموترة للحضور، ما شجع شلة ميكانيكا، التربو وشاكوش ومسمار، الذين انضم إليهم بمرور الوقت في الكلية حديدي والعتال، على أداء وصلة رقص شعبية قرروا في منتصفها أن يحضروا غانم إليهم ويلقوه في الهواء عدة مرات، انضم إليهم بحار ثم محمد ومحسن ومعاذ واثنان من إخوة غانم، محمود ومصطفى، ثم انضمت دينا إلى المؤامرة الغربية، ثم ماجدة، وأخيراً، وبعد طول انتظار، أماني. بدأت رقصتها متحفظة نتيجة للتحفز المتبادل، ثم قررت وجذبت سمر، وإمعاناً في محاولة كسر التحفز، خلعت الطبقة الأولى من حجابها وتحزمت بها، ودخلت في منافسة حامية مع المؤامرة الغربية، ما أجبر كل الذكور على التوقف عن الرقص وبدء التشجيع. امتلكت المؤامرة الغربية الجرأة والمبادرة والحسية، وربما لولا معزتها الشديدة لاعتبرناها حسية فجأة أكثر مما يحتمل سياق الفرح، لكن أماني، كعادتها، امتلكت الجمال والهدوء والإغراء القاتل الناتج عن تمرس طويل في الرفض.

شجع محمد وغانم ومحسن والتربو وبحار، بالطبع، المؤامرة الغربية في انفلاتها، بينما شجع أغلبية الحضور، غير المدركين لتعقيدات الموقف، أماني وساحريتها. محمد مصطفى، الشهير بمحمد نظرية، الوحيد ممن يدركون تعقيدات الأمور، شجع أماني. كعادته تحمس أكثر من اللازم، ودخل في المنافسة مجرداً عن أي شيء يؤهله لذلك، لكنه، كالكثيرين، كان قد وقع في غرام أماني التي يراها للمرة الأولى، وكالكثيرين، كان مستعداً للإيغال في الحماسة أكثر من ذلك لنيل إعجابها.

٤١

محمد طه، كان من أواخر من انضموا للشلة في ومضتها الأخيرة قبل الانهيار، اشتهر بمحمد نظرية، كما حكى لهم، منذ الثانوي، في أحد أكثر المدارس الثانوية شعبية وشهرة في القاهرة، كان زملائه، مدفوعين بالصعود الدرامي، للسلفية وقتها، يناقشون خطر الشيعة والشيوعية، حاول أن يشرح لهم أن الشيعة والشيوعية شيئان مختلفان، الشيعة مذهب ديني إسلامي، بينما الشيوعية نظرية أيولوجية في السياسة والاقتصاد، فأسموه محمد نظرية. مات اسم شهرته تمامًا حتى، تعرف على شلتهم في السنة الرابعة من الجامعة، وحكى لهم هذه القصة، فتم إعادة إحياء الاسم، أصبح مرة أخرى، محمد نظرية.

نظرية كان من الأشخاص المفضوحين في ذوقهم الشخصي للجمال، فالحب، رغم أنه يبدو أحياناً معقدًا جدًّا، يبدو في حالات أخرى بسيطاً ومتوقعًا أكثر من اللازم، ينجذب نظرية بوضوح للبنات رقيقات الجمال، اللاتي يصلحن، بمعايير ظاهرية، ليكون بطلات قصص الحب العذري. مشكلة هذه المعايير، أنها ظاهرية فقط، وبالتالي كان يفاجئ في كل مرة، بحقيقة أنها مثلما تخفي غلظة عبد القادر التلاوي رقة

قلبه، فأحياناً يخبئ الجمال الهادئ، كجمال أماني، خلفه صخب قلب لا يمكن مجاراته. ولذلك في فرح غانم، وبمجرد أن رأى محمد، حماسة نظرية، في الرقص، لنيل الإعجاب، أدرك أن مأساة عاطفية جديدة في إطار التكون.

٤٢

بعض العوالم في بدايتها تكون ساحرة جداً وتعدك بأنها أبدية، لكنهما سرعان من تنتهي، يجيد بعض الناس التعرف على بدايات العوالم، يستفيدون منها، وعندما يلمحون بداية أفولها، تكون لهم القدرة على لمح بدايات عالم جديد آخر، فيرحلون لهم، ليتمتعوا ببداياته، البعض الآخر، يعميه شغفه بالعالم عن ملاحظة أفوله، فيستمر فيه فترة أطول لا تسمح له بالانتقال لعالم بادئ ثان، بل يلحقه متأخراً في منتصفه، بعد أن ذهب كل خيراته لمقتحميه الأوائل، فيحاول الاستثمار فيه بكل قوته، ولا يدرك أنه هذا العالم هو الآخر سيبدأ في الأفول قريباً. النموذجين هذين من الأشخاص هم نماذج مثالية، أما أغلب الناس فيجمعون الصفتين معاً في الغالب، يكتشفون عالماً بدايته، ينعمون بخيراته، لكنهم يستثمرون وجودهم كاملاً فيه، ولا يرون أفوله، فيتحولون تدريجياً من مكتشفين أذكياء إلى أشباح عالم انتهى، البعض ينتقل لكل عالم في بدايته دون أن يتمتع، من كثرة تنقله بين العوالم، بخيرات أي عالم، محمد بحار، للصدفة اللغوية، كان من هؤلاء الناس. عندما انضم للمرة الأولى، لمحمد وغانم، في السنة الثانية من الكلية، كان منتمياً لأحد جماعات العمل الخيري التابعة لأحد الدعاة الشباب، في السنة الثالثة، انضم لأحد جماعات الإسلام السياسي، في السنة الرابعة، وعندما بدا أن السلفية في طريقها لهزيمة الإسلام السياسي انضم إليهم، أطال لحيته وقصر بنطلونه لكنه لم ينقطع عن

لقاءاتهم المختلطة، وإن كان يرفض حينها السلام باليد على البنات، وأخيراً في السنة الخامسة، حيث فرح غانم وسمر، كان قد انضم للتربو وشاكوس ومسمار في جماعتهم اليسارية، لكن بسبب توتره الفكري هذا نفسه، كان صديقاً لأغلب طلاب الكلية، بكل صفوفهم، لم يكن في أي من تقلباته متعجباً، محتفظاً بشخصية هادئة، وحس ساخر، جعله واعياً بغرابة ما يفعله، ويستخدمه كمصدر للنكت، قاطعاً الطريق على أي شخص آخر يريد فعل ذلك، والمهم أنه في كل تقلباته تلك، كان مغرمًا بالموأمرة الغربية، التي هي نفسها، كانت مغرمة بتقلباته، دون أن تتقلب معه، لا أعتقد أنه يمكن اعتبار علاقتهما علاقة صداقة، أو صحوية، أو حب، هي شيء آخر، أحدهما يدور في كل مكان، ويحتاج أن يظل شيء في حياته ثابتاً كأكيد لهويته، وهي تجد في حكاياته وتنقلاته دليلاً على حياة بعيدة صاخبة، تشعرها بالدفء وبإمكانية أن يتغير عالمها في يوم ما، تقلباتها قصيرة، وربما لن تتذكر من سنوات الكلية كلها، سوى بحار والتربو.

٤٣

بعض الحبال حين تنفلت منا، ينفلت معها منطقية وجودها في سيرتنا. كأنها حدثت لشخص آخر نحمل ذكرياته، بعضها الآخر يظل في أيدينا دوماً لكنه مؤلم وضاعط، حتى أننا نفضل التظاهر بأنه لا يحدث، لتقليل التراجيديا بينما نقص حكاياتنا، رغم أن هذه الحبال تحديداً، هي، بالذات، من يمكنها تفسير لماذا صرنا نحن. ربما نخاف من التعري أمام الآخرين، هكذا دون حماية من حكايات طويلة، قد تكون حقيقية، لكنها هامشية في سيرتنا، الحياة واسعة، وبقدرة كل منا، أن يكتب سيرته في رواية شديدة الطول، ويمحو منها بشكل كامل، ما هو أكثر جوهرية، كأنه يكتب سيرته هذه تحديداً ليخفيها تماماً.

التروولي كان كوميديان الشلة، أسرعهم بديهة في التقاط المفارقات والإفيهات، أكثرهم ميلاً لتحويل كل شيء إلى أضحوكة، حتى أنه عندما رأى التربو، لأول مرة وهو يسير في مظاهرة في الجامعة مع اليساريين، هتف بصوت عالي، ”يحيا الرفيق ستالين، وكل الرفاق أجمعين“، لم يهتف وراءه أحد لأنها كانت مظاهرة لفلسطين. أحياناً كان يتجاوز قليلاً في سخريته، مثلاً في أحد معارض التربو في الجامعة للتعريف بتاريخ قادة الحركة الاشتراكية التاريخيين، وفي غفلة من التربو وشاكوش ومسمار، وضع التروولي صورة له بالأبيض والأسود وسط صور القادة، وتحت الصورة تعليق قصير ”ترووليفسكي: صاحب نظرية الثورة النائمة“، مرت هذه المشاغبات لصداقته الوطيدة مع التربو، ولأنها لم تكن عدوانية، كان ذكياً، وبالتالي ابتعد تمامًا عن أي مشاغبة مع الإسلاميين، ”مالهمش في الإفيه“ حسب قوله، لم يكن اليساريين أصحاب إفيه، لكنه كان صديقهم لا أكثر، مالم يمر هي سخريته من الأساتذة، الدكتور محمد كامل على الأخص، في محاضرتة، كان كلما ذكر الدكتور كامل كلمة الموجة وهو يشرح شيئاً عن الموجات الكهرومغناطيسية، أخذ التروولي يعني ”الموجة ماشية ورا الموجة عاوزة تطولها“، طرد من المحاضرة، في المحاضرة التالية، في وسط المحاضرة قاطع الدكتور قائلاً ”دكتور أنا جعان“، ”انتا عبيط يابني، أعملك ايه يعني؟“، ”جعان وعاوز موجة“، رسب في المادة.

التروولي ككل الأذكاء ممن لا يريدون من أحد أن يعرف شيئاً عن حياتهم الشخصية، لم يكن يتهرب أبداً من أن يحكي عن حياته، عشرات المواقع المضحكة والغريبة عن بيته وإخوته، تفاصيل التفاصيل حتى تشعر أنك تعرف عن حياته أكثر مما تعرف نفسك، كان بارعاً، كأنه تدرّب طول حياته على تلك المراوغة، فلم يدر أحد من أصدقاء عن

حياته الحقيقية شيئاً إلا بعد فوات الأوان.

٤٤

الشخص الوحيد الذي يذكر محمد بالتروولي، رغم كل الاختلافات بينهم، هي أماني، لكن أماني كانت تتبع استراتيجية أخرى، فبدلاً من أن تغرقك في تفاصيل التفاصيل حتى تتقين مخطئاً أنها لم تترك شيئاً لتخبرك إياه، كانت دوماً ما تنتقل بين القصص دون إكمالها، تصل لذروتها بحماسة ثم تحشر بداية قصة أخرى وتبدأ فيها، مع وعد ضمنى كل فترة أنها ستعود لتكمل ما بدأته، وحين تعود للقصة الأولى، تستمر قليلاً ثم تحشر بداية قصة مختلفة، وتوغل فيها، فتنتظر على الأقل أن تنهي قصتها الثانية، فتخترع ثالثة، فلا تدع لديك إلا بعض المقتطفات من هنا وهناك عن حياتها، مقتطفات لا يمكنك بسهولة أن تربطها، خاصة وأنها أحياناً لأغراض إرباكك قد تغير عامدة بعض الأسماء لتتهم ذاكرتك، ورغم كل القطيعة التي بينهما، منذ حادثته التروولي.

كان يعرفون عن أماني مثلاً أنها كانت دوماً تشترك في مسابقات أوائل الطلبة، وفي إحدى رحلاتهم لمدرسة أخرى في تلك المسابقات، وقع أحد الطلاب في حبها مباشرة، حسب حكايتها، كانت هذه المرة الأولى، التي تدرك فيها فتنتها، الطالب، والذي بالطبع لم تكن تذكر اسمه، أعلن لها عن حبه في منتصف المسابقة، ولأنه يعرف اسم مدرستها، أخبرها أنه سيظل ينتظرها أمامها على الداوم، وحسب حكاية أماني، أنه فعل ما هو أغبى من ذلك، أغبى حتى من مدرس الرياضيات في مدرستها الثانوية، الذي ذهب لخطبتها وهي في الصف الثالث الإعدادي. امتلأت قصص أماني دوماً بالمحبين المهزومين، قصص لم يكن أي منهم ليصدقها لولا أنهم يشاهدون مثلها وهي تحدث

كل أمامهم كل يوم، بل وأصبحوا من كثرة هذه القصص ضجرين من متابعتها، كأنهم اكتسبوا من طول قريتهم من أماني، نفس قسوتها. وربما لأن نظرية لم يعايش كل التجارب التي عايشوها مع أماني، كان مستعداً للمغامرة، وفي مفاجأة للجميع، بدا لهم، أنه سيفعلها فعلاً، سيجعل أماني تحبه.

٤٥

انضم نظرية لشلتهم في أواخر السنة الرابعة، وقبل الأخيرة من الكلية. في أيامه الأولى بالكلية، كانت لديه خطة بسيطة ليختار بين ميوله الإسلامية وقتها وبين رغبته في الانطلاق، الخطة هي أن يترك الأمر للقدر، قرر إن تمكن من مصادقة بنت خلال شهر من بداية الدراسة، فهذا ممتاز، إن لم يتمكن سينضم لأحد الجماعات الإسلامية، ولأن اسمه محمد، قذفه في سكشن كله محمداً، أصبح إسلامياً، لكنه أيضاً استمر في كتابة الشعر. شعره كما سمعوه لأول مرة كان مغرّقاً في الرومانسية متأثراً بشكل واضح بشعر فاروق جويدة، في الفترة التي عرفوه فيها، كان قرر ترك الإسلاميين، ولأنه لم يعرف كيف يخبر أصدقائه الإسلاميين بذلك، كان يغلق هاتفه على الدوام، ولا يحضر أغلب المحاضرات، وإن حضرها مضطراً، كان يسرع بالهرب والاحتماء بشلتهم، متحصناً بعد شلتهم عن كليته، فقد كان طالباً بكلية الصيدلة، كان التربو هو من أدخله للشلة، تعرف التربو عليه من نادي للقراءة في الجامعة، كان قد أسسه أحد الليبراليين القلائل، النادي كان ليبرالياً كفاية ليجتمع فيه اليساريين والإسلاميين المهتمين بالقراءة، نظرية كان وقتها مغرماً بإلهام زميلته في الكلية، وقصة تعرفه على إلهام هذه وحدها كانت، حتى قصة أماني، حكايته الأثيرة التي لا يمل منها.

يحكي نظرية أن إلهام استرعت انتباهه أول مرة، وهو يحاول تشيت مصعب عنها. مصعب كان أحد رفاقه الإسلاميين، غير أنه، ولأن الإنسان خطأ، كان يكلم البنات، وهو ما استدعى بحسب نظرية القيام بالعديد من الاجتماعات، التي لا يعلم عنها مصعب شيئاً، فيما بينهم لبحث كيفية تقوم مصعب، اتفقوا أخيراً على خطة بسيطة، كلما رأى أحد منهم مصعب يحدث فتاة، يذهب إليه أحد منهم ويخبره أنه بحاجة للحديث معه في موضوع مهم، وهكذا يسلم كل منهم مصعب إلى الآخر فلا يجد مصعب وقتاً كافياً للحديث مع البنات، وبالوقت تنهار علاقته بهن، لم تنجح الخطة في هدفها، لكنها نجحت في تعريف نظرية بإلهام، ففي أحد المرات التي تدخل فيها لسحب مصعب من حديثه مع فتاة ما، هي إلهام، جذبته وجهها الرقيق، حتى أنه بدلاً من يسحب مصعب وقف مع الاثنين ليتبادل الحديث، وبحسب تحليله، ربما استدعت وقفته تلك، العديد من الاجتماعات الأخرى، لأنه لاحظ بعدها بأيام قليلة، أن أصدقائه كان ينفذون الخطة التي اتفقوا عليها بخصوص مصعب، واجههم فتوقفت الخطة، ولم يعرفوا ما العمل، بل وأخذ رفاقهم يتسللون واحداً تلو الآخر إليهم، حتى كونوا شلة ما أسماها بقية إسلامي الكلية "بتوع البنات"، لم يكونوا يفعلون شيئاً سوى الحديث العادي واليومي مع زميلاتهم، لكنهم أصبحوا معضلة عويصة رفاقهم، حتى اكتشف إسلامي الكلية أن إسلام، وهو ليس من "بتوع البنات"، بدأ يشرب السجائر، فأصبح للاجتماعات أجندة جديدة.

أحد الدروس الأولى التي نتعلمها في الحياة، أن الأشياء، أحياناً، عكس الأشخاص، تولد كبيرة ثم تصغر، تزاخما أحداث جديدة، وتأخذ

مكان الصدارة، سباق تتابع آخر، ومع تبدل الأولويات، ومهما بلغت
عزيمتنا، تتميع بالوقت أحكامنا الصلبة الناتجة عن تلك الأحداث، لا
يعالج الزمن كل شيء، لكنه يشغلنا بجراح جديدة.

في الأيام التالية للفرح، أخذ "نظرية" يختبر الأجواء في الشلة
ومدى تسامحهم مع عزمه التقرب من أماني، كانت غضبهم منها
أوهنه الوقت، وبدئوا في التفكير أنه ربما لم تكن هي المخطئة تمامًا،
مازال حضورها موثرًا، ماداموا لم يتحدثوا معها في ما حدث للترولي،
وهو أمر كانوا يتحاشونه جميعًا. استغل ترددهم وجذبها للشلة مرة
ثانية. وحين جلست بينهم، أخيرًا بعد طول انقطاع، تمكن نظرية، دون
قصد، من كسر التوتر المحيط بها، بخلق مشهد مريب آخر، إذ أنهم في
وسط جلستهم معًا وهم يختارون كلماتهم بدقة وحرص لكي لا تفتح
أي منها سيرة الترولي، قرر نظرية أن يقول لأماني أنه كتب قصيدة لها،
وبرعونة تام، وأمام الجمهور غير المناسب، بدأ في إلقائها:

أتى إليك و قد خضبتني
دماء الكفاح و وجد الغرام
غرامى بحبك يا عمر قلبى
غرامٌ توارى وراء الغمام
و ما مات أبدًا و لكن توارى
و يوماً سآتي أزيح الغيام
و أكشف للكون عن طهر حبك
و أحيى زمانًا يرى في المنام
و أغمض عينى بلا أى خوفٍ
و لقيامك بالحلم أغلى مرام

ولدهشتهم جميعًا، أماني، صاحبة كأس العالم في الرفض، ولأن حتى أمهر الأبطال لا يكونوا دائماً في أفضل أيامهم، وربما أيضاً لأنه من أعادها لمكانها، وربما لأنها مازالت متأثرة بما حدث للترولي، وربما لأسباب أخرى لا نعلمها، كما لا نعلم كل شيء عن أماني، لم ترفضه تمامًا، لم تقبله أبداً، لكن شيئاً ما في نظرتها، أقنعه أنها تخبره "يمكنك أن تفعل أفضل من ذلك"، كان ذلك كافياً له تمامًا، ليعطيه الشجاعة لارتكاب حماقة المقبلة.

٤٧

يحدث لنا كثيراً أن ننسى إسم شخص ظللنا نلتقيه كل يوم لسنوات، وربطتنا به حبال قوية متعددة، ثم دار الزمن وتفلتت الحبال، حتى أننا نشعر أن إسمه قريباً جداً من عقلنا لكن لا حبل هناك لنشده به. حدث هذا لمحمد حين قابل نظرية بعد فترة طويلة من الجامعة، عرف وجهه من بعيد، وفي المسافة القليلة التي تفصله عنه وهما يسيران تجاه بعضهما البعض، أخذ يشحذ عقله ليتذكر الاسم، يذكر أنه كان إسمًا فكاهيًا يدل على الفكر، هل كان فكرة؟ مبدأ؟ أطروحة؟ ثم تذكر قصة نظرية عن بدايات الجامعة وكيف أنه وجد نفسه في سكشن كله محمداً، هو على الأقل محمد، ويمكن تجاوز إسم شهرته، في المقابل نظرية، وكما يمكننا أن نحسب، كانت ذاكرته جيدة، تبادلاً الأسئلة المكررة، عرف محمد أن نظرية، الآن يعمل ككاتب في إحدى المجلات، له ديوان شعر منشور باسم "ترنو عيوني لحلم جميل"، وطفلة "أسمى"، تذكر كنيته وسط الحديث، فمازحه "أسمى نظرية في العالم"، وضحك، لم يسأله عن زوجته، الصديقة الأسطورية القديمة، وتحاشى نظرية الحديث عنها، وسأل محمد في المقابل، ماذا يحدث في حياته؟، أجابه محمد أنه ترك الهندسة مثله، وأنه

يعمل الآن ككاتب إعلانات، حكى له عن المكتب، عن حبيبته غادة، عن خطوبته الأسبوع المقبل، عزم على الخطوبة، بل، ومخالفًا لعهد السكوت الضمني عنها، قال له أن يحضر أسمى والمؤامرة الغربية معه، وابتسما، واحتضنا بعضهما، كلاهما يعلم أن نظرية والمؤامرة الغربية لن يحضرا الخطوبة، لكن كلاهما أيضًا يعلم أن الدعوات الزيفة واللقاءات الموعودة التي لن تحدث، ليست مجرد طقسًا اجتماعيًا بلا معنى، بل محاولة ذكية لعدم إفلات الجبل نهائيًا، فمن يدري من سيحتاج ماذا من من في المستقبل؟ وما كان يدري محمد وقتها أن المؤامرة الغربية، بذاتها، التي أصبحت أمًا لأسمى نظرية، مازال لها دور محوري في حياته، وستؤديه.

٤٨

مدهش كيف تشكل أحداث عشوائية جدًّا جزءًا كبيرًا من حياتنا، أحداث لا نخطط لها، ولا تبدو للوهلة الأولى ذات قيمة كبيرة، لكنها من تصنعنا، قديمًا عرف محمد صديقه المقرب حسين، بصدفة كاملة، أتى متأخرًا عن اليوم الأول في المدرسة، ولم يكن في الفصل مكانًا خاليًا إلا بجوار حسين، وبنفس الصدفة، سيسأله شاب ما أمام الكلية في اليوم، عن مكان المحاضرة، ثم سيقترح عليه أن يذهبًا معًا لإحضار شيء يأكلونه من الكافيتريا قبل المحاضرة، وهكذا سيدخل محمد غانم حياته، في المكتب الذي يعمل به، كان الأمر مختلفًا. كان مؤسسي الشركة، مدفوعين بروح الستارت أب، أن يخلقوا جوا حميميًا في المكتب، يوجد بالمكتب بلاي استيشن، وتليفزيون يشاهدون فيه الدوريات الأوروبية، وطاولة بنج بونج، كان محمد قد أتى للعمل بالمكتب عن طريق ندى، لكنه كان يجلس في غرفة أخرى، غرفة الكتاب، حيث جمال ومحمد ويحيى وشرييني، بينما ندى معها

وأسامة ودعاء ورقية وعمرو ومنال في غرفة السوشيال ميديا، أنور ومينر وعادل وريشة ونجم في غرفة المصممين، وهكذا خلق التقسيم المهني للمكتب، الشلل، شلة محمد، وشلة ندى، وشلة أنور، بينما يحوم كل من حربية وعلاء وياسر وصبحي وإبراهيم والاسطى ، بين كل الشلل.

الجو الحميمي للمكتب قد يشعرك لوهلة أنها شلة واحدة كبيرة متماسكة، وستحتاج لبعض الوقت، لتدرك تقسيماتها الفرعية. الطيور الحائمة بين الشلل، ورغم أنها لا تشكل جزءاً أصيلاً من أي شلة، إلا أنها ما تجعل من الممكن اعتبارها كلها شلة كبيرة، في داخل كل شلة، الأسطى هو العامل المشترك الأكبر، لأنه من ينقل الحكايات من غرفة لأخرى، وهو بحكم مهنته السابقة يمتلك كمّاً هائلاً من الحكايات، لا يمكن القطع بصحتها. هناك دائماً، قصص عن نساء حاولن إغرائه، القصص الأكثر تكراراً، هي لمدام ناريمان، التي كان يعمل سائقاً لزوجها الأجنبي، البيضاء، البضة، للدقة لم يستخدم هذه الكلمة في وصفها، لكنها تفي بالمطلوب، التي كانت دوماً تستدعيه ليصلح أشياء في شقتها، بعدها تأتي مدام سميحة، التي كانت حكايتها أغرب من أن تكون صحيحة أو ملفقة في الوقت نفسه، ثم نساء أخريات أقل تكراراً ودائماً ما يستخدم حكايتهم كمقدمة يصل منها لإحدى حكاياته مع ناريمان أو سميحة، قصص أقل تواتراً عن رجال حاولوا جر قدميه للرديلة، وقام بضربهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر، بل وحتى قصص عن السحر، مثل قصته عن الرجلين، الذين أخذوا يتلوان جملة غريبة وهما يركبان معه، أقسم أنهما كانا يقرآن القرآن بالمقلوب، ثم قدم له أحدهم قطعة شيكولاتة، سألاه عن اسمه، فأخبرهم باسم خاطئ، وأخذهم إلى طريق مختصر يؤدي إلى منطقته، لتبدأ الحفلة الكبيرة،

قصصه عن الأجنب عادة ما تنتهي بدخولهم إلى الإسلام، مثلما تنتهي قصص شبابه على نجاحه في ضرب مجموعة شباب كانوا يعتدون على فتاة، حكاء بارع، ذكي، يفهم من أمامه، يجيد التصرف في كل المواقف، حتى أنك تجد صعوبة أحياناً كثيرة في عدم تصديق حكايته، ولو فعلت ذلك، أي شككت في قصصه، فذلك فقط، لتحمسه أكثر، بهذه الطريقة أصلاً، حين قاطعه ياسر ساخراً من خلقه لقصة ناريمان، قال له الاسطى متحدياً ”بقى مش مصدقني، أمال لو حكلك قصة مدام سميحة هتقول ايه“، ثم بدأ في الحكاية.

٤٩

في النظرة الأولى، لا تبدو القصص المثيرة موزعة بالتساوي بين الناس، يمتلك البعض مئات منها، ولا يملك آخريين أي شئ. عندما تناقشوا في المكتب في هذا الأمر، مدفوعين بسحر حكاية سميحة، خرجوا بنظريتين، وهما بالترتيب:

- ”نظرية الحكي“ لجمال، الذي رأى أن الجميع يتعرضون لمئات القصص في حياتهم، وتقع المهمة كاملة على الفرد ليحول كل قصة منها إلى حكاية مثيرة، قد يضطر أحياناً لاختراع بعض التفاصيل، أو حجب بعضها، ليجعلها مثيرة أكثر، هو لا يمتلك حياة مثيرة أكثر من الآخرين، لكنه يمتلك الموهبة.

- ”نظرية الشعور بالغرابة“ لشربيني، الذي وافق جمال أن كل فرد تحدث له الأشياء، لكن الحاسم في قدرته على تحويلها لقصص مثيرة، ليست موهبته الحكائية، بل شعوره بالغرابة الذي يحفز عقله ليلتقط الأشياء الغريبة، الشعور بالغرابة قد يحفز الانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى، فتفقد البيئة الاجتماعية الأولى بدايتها وتتحول قصصها

العادية جدًّا إلى قصص مثيرة، لهذا كثيرًا ما تبدأ الحكايات بانتقال أو سفر أو حدث غريب، أي أن الانفصال عن "العالم العادي" هو شرط لكل قصة.

بجوار عملهم اليومي، كان المكتب دومًا بيئة مناسبة للتفلسف الزائد في أمور الحياة، حتى أنهم جلسوا فيما قد يبدو للمشاهد البعيد، كاجتماعات جادة طويلة، لمناقشة أشياء مثل التمرکز الأفضل في موقف مزدحم، الطريقة المناسبة للتعامل مع سياس العربات، أي الشخصيات التاريخية تظن أنك قد تتمكن من مواعدها، أو للتفكير في تطبيقات قد تدر عليهم فجأة الربح السريع، تطبيق يساعدك في تذكر هل أغلقت باب بيتك أم لا، تطبيق يسحب عدد كلماتك التي قلتها في اليوم، تطبيق يساعدك في فهم الإفيهات المنتشرة ويشرح لكل الميمز الحديثة، تطبيق يساعدك في اختيار ملابسك، ولأن الحياة سريعة والناس متشابهون أكثر مما يرغبون، كانوا يفاجئون ببعض أفكارهم تتحقق فعلاً فيغمرهم الندم على عدم العمل، ويقترحون تطبيقات جديدة، حتى توصلوا ذات يوم للتطبيق الذي نال رضاهم جميعًا، وسيغير حياتهم فعلاً، لكن قبل أن تتغير حياتهم، وبسبب أنه كان لكل يوم في المكتب مسأله الفلسفية الخاصة، ما فكروا في كتابة مسلسل يحكي يومياتهم في المكتب، طرحت الفكرة للمرة الأولى، من قبل رقية، بعد وقعة السمك، التي كان بطلها علاء.

٥٠

أغلب من المكتب، ربما لو استثنينا، حربية كمدير للمكان ومينر، لا يعرفون بالضبط، ماذا يعمل علاء، يعملون بجواره منذ عامين كاملين، ولا يدري أحدهم ماذا يفعل تحديداً، عمله ليس سرًا، وكل مرة يمازحونه في الأمر، يخبرهم بعمله، ثم ينسون.

لو كان جمال وشرييني هما فلاسفة المكتب، ومحمد ومنير وأنور هم الفنانيين، وأسامة ممثلًا للذكاء والتفوق الدراسي الدائم، ودعاء صاحبة القبضة الحديدية، ورقية هي الراعي الرسمي للنميمة والألعاب الجماعية، وريشة ونجم ممثلين لروح الشباب، وحرية حكيم القرية، فإن علاء هو مغامر المكتب.

قبل أن يجئ للعمل في المكتب، عمل علاء كمزارع في أحد حقول العنب بإيطاليا، وقبلها كمصور شارع في أمريكا، وقبل ذلك كمدرّب سباحة في إحدى القرى السياحية، وقبلها بصاحب محل لإصلاح السيارات بالقاهرة.

دخل علاء المكتب وهو يحمل في يده سنارة صيد حديثة أوتوماتيكية، ويحمل حقيبة بلاستيكية مليئة بالسّمك، يرتدي شورت قصير وقميص واسع مشجر ونظارة شمس، في الصالة حيث دخل علاء كان جمال يتشاجر مع منير بصوت عالي بعد فوز الأخير عليه في البلاي ستيشن، منير بجوار ادعائه الحصول على لقب أطيّب شخص في العالم عام ٢٠١٤، فهو أيضًا أمهر لاعبي الفيفا في المكتب، بينما رقية منفردة بأسامة تحكي له ما حدث لأنور بالأمس، وهي حكاية طويلة أخرى، حربية يلعب مباراة بنج بونج في مواجهة أنور، يحكم بينها يحيى، محمد وشرييني ينتظران دورهما في البنج بونج، منال تصرخ في شخص ما في الهاتف، وصبحي وإبراهيم ينتظران دورهما في البلاي ستيشن. ندى ودعاء وياسر وعادل وعمرو والأسطى في البلكونة يدخنون السجائر. بالضبط، كما فكرت أنت، لا أحد يعرف تحديدًا متى يعمل الناس في هذا المكتب.

ألقي علاء حقيبة السمك على الأرض، خلع نظارته بشكل سينمائي مقصود، ووقف صامتًا، فخورًا، وبهدوء المنتصرين ينتظر أن يسأله أحد،

دون أن يسأل جاء الأسطي من البلكوثة، حمل شبكة الصيد ودخل بها إلى المطبخ، وهو يصيح عاليًا موجهًا كلامه للجميع ”هعملكم أحلى أكلة سمك كلتوها في حياتكم“، انضم إليه في المطبخ صبحي وإبراهيم، وكما يليق بزعيم، وزع حربية الأوامر، يحيى ينزل لشراء العيش والجرائد، محمد وجمال، يساعدان صبحي وإبراهيم والأسطي في الطبخ، رقية وأسامة لشراء الرز والليمون ومتطلبات السلطة، منير يستعد ليلعب معه ماتش فيفا. جلس علاء منتظرًا دوره في البلاي ستيشن، يعلم بخبرته في المكتب، أن الوقت المناسب للحكاية ليس الآن.

٥١

تتعارض القبضة الحديدية لدعاء، مع شكل مكتبها، المكتظ بالحيوانات المطاطية وألعاب الأطفال، الصراحة تتطلب أن دعاء ليست بالضرورة ذات قبضة حديدية أصيلة، أي قبضة حديدية ناتجة عن رغبة في التحكم بالآخرين، بل ناتجة عن عدم تكيفها مع طريقة عمل المكتب. فهي كشخصية، شخصية مرحة وودودة وتحب الهزار والقعدات الحلوة، لكنها تنسى كل ذلك، عندما تجد من طلبت منهم مهام محددة، يتركون العمل ليلعبوا ماتش فيفا، أو يجلسون في جماعات ليناقدشوا الأزمة الفلسفية في مبدأ السفر عبر الزمن، تشكو لحربية، الذي يكون هو نفسه منغمسًا في النقاش، ويعدها بحل المشكلة. مشكلتها الأولى ظهرت في المكتب حين وجدت زرافتها البلاستيكية موضوعة على مكتب آخر، وعلى الزرافة يجلس قردها البلاستيكي بدوره، وفي مواجهة الزرافة فيلها وعليه أسد، لم يضايقها ذلك، ما ضايقها هو أن أحد ألعابها، وكانت لعبة قرد يحمل موزة يمكن إطلاقها كسهم، ملقاة على الأرض، ولم تجد الموزة، عندها

انتبهت لمحمد.

محمد كان أحد هؤلاء الأشخاص، الذين لا يعرفون كيف يجلسون هادئين ولا يفعلون شيئاً، يجب على الداوم أن يلعب بشئ ما في يديه، حتى أنه كثيراً ما كان يلعب بسكاكين المطبخ بينما ينتظر غليان الماء وهو يعمل الشاي، يلتقط السكينة ثم يلقيها مرة أخرى للهواء. في الجامعة، كان غانم دوماً يجبره على الجلوس في المقعد الخلفي لسيارته، حتى لا يشتته عن الطريق بينما هو يلعب في التابلوه والمرايات، حين قالت دعاء ”أنا عاوزه الموزة بتاعتي“، تذكر التروولي رحمه الله وهو يقول للدكتور ”أنا عاوزه موجة“، بحث فعلاً عن الموزة وأعطائها لها، ووعدها بالألعب بألعابها مرة أخرى، ثم انصرف وهو يحمل الزرافة بين يديه ويقذفها في الهواء، حينها عرفت دعاء كيف يمكنها أن تعالج هذه الأزمة

٥٢

للحياة طريقتها في التطبيع مع الفقد، وبشكل ما، يمكن القول أن الحياة بأكملها هي تمرين طويل في التعامل مع الفقد. ولأن وجودنا محدود زمنياً، فنحن نعيش حياتنا بفقدنا، وتكتمل حياتنا حين نفقدنا تماماً. التعلب لم ينقذه خياله، والتروولي لم يساعده حسه الساخر على المراوغة، وفي اليوم التالي لوفاتهما، استمرت الحياة، حتى أن أصدقائهم حزنوا قليلاً، ثم شغلهم الدنيا، وجودنا المحدود زمنياً، يحد، بدوره، من قدرتنا على توقيف خسائرننا، يذكر محمد، وداع أمه لأخوها الأكبر، علي، وهي ترى نعشه يخرج من المسجد، لم تلمم أم بصوت، بل صرخت بصوت عالي جداً لئسمعه أخيها في العالم الآخر، ”مع السلامة يا أستاذ علي“، كان يكبرها بعشرين عاماً، ولم تناديه أبداً سوى بالأستاذ، حتى في وداعه الأخير.

يذكر أيضًا والده التروولي، الحاجة أمينة، وهي تقطع صمتها أمامه هو وأصدقائه، لتحدث نفسها قائلة بصوت مسموع ”ملحقتش أزعل عليك يا حبيبي، سامحني“، كان في انتظارها بعد وفاة التروولي أحداث جسام أخرى، جعلتها مشتتة بين التعامل معها وبين توقيح حزنها. هل من هذه الفكرة أتى طقس نصب عزاء للميت في أربعينه، كوعد له أننا لم ننسك رغم مرور الأيام؟

ليست الخسائر كلها مساوية، فبعضها يلدنا مرة ثانية، لأن أنفسنا الماضية قد رحلت برحيل ما فقدناه، ومرة أخرى نجد أنفسنا نتعلم المشي والحديث، بعضها ننساه بعد ساعة، أو نضحك حين نذكر حزنا لفقده، كنا نبكي صغارًا مثلًا حين نفقد شيئًا نحبه، كقلم أو حقيبة، وقد نبكي حتى أمام واجهات المحلات مربكين أمهاتنا لأننا نبكي فقدان ما لم نمتلكه ولا تريد الأمهات شراءه لنا، وحين نكبر يواسينا أصدقاؤنا حين نفقد علاقة كنا نجد فيها أنفسنا، أن تلك الخغادة مكسب متخفي، وأنا سنصير أفضل، وأحيانًا يكون حديثهم منطقيًا، بل وأحيانًا نصير أفضل فعلاً، لكن كما هي خسائرننا مكتوبة علينا، دون قدرة على أن ننقذ كل شيء نحبه، مكتوب علينا أيضًا أن نحزن، وأن ننسى، وأن تتوالى حياتنا، فقدان يتبع فقدان، ونسيان يتبع نسيان، وربما يكون الحنين، هو طريقتنا في التعامل ليس مع الفقد، لكن مع نسيان الفقد، يجرحنا الفقد، ويجرحنا نسيانه كاتهام لنا بعدم الوفاء، والحنين طريقتنا للتذكر، بين حين وآخر، ما فقدناه، ولنذكر أنفسنا أننا لم ننسى تمامًا، وقد يكون هذا ما يخلق الطمأنينة الغريبة التي يضيفها الحنين على ذكريات لم تكن بهذا الجمال.

لم يكن المكتوب يجيد التعامل مع الفقد، كأن أفراده لا يمكن

استبدلهم بسهولة. مثلاً منذ ترك أحمد العمل ليلتحق بعمل آخر في شركة خليجية، وكل شهر يأتي مكانه كاتب آخر، ولا يستطيع التكيف مع المكان، فيتزك العمل. واليوم الأول لكل شخص من هؤلاء، بحسب رقية، يصلح ليكون حلقة منفصلة في مسلسلها عن المكتب، خاصة مثلاً اليوم الأول لمجد.

قبل أن يجرى مجد للمكتب، اتفق الجميع، على القيام بتطفيشه من المكتب، كانوا يتحولون بالوقت لشلة تحمي نفسها من كل ما هو خارجها. حربية بالطبع، بصفته من عين مجد، كان خارج المؤامرة. رقية زعيمتها. عند دخول مجد للعمل، تظاهروا جميعاً بالانشغال، أو بشكل أدق، تظاهروا بالعمل، ويتملص كل منهم حين يحاول مجد فتح سكة للكلام معه. دعونا نحلل المعركة بينهم وبين مجد، في جهة المؤامرة وزعيمتها رقية، يمتلكون هم المكان وألفته، يتحركون براحتهم أكثر، يعرفون بعضهم البعض جيداً جداً، وكلهم متدخلون في حيوات بعض الشخصية، بشكل زائد، بجوار هذا فهم محبين للإفيه، وبدت خطة تطفيش مجد، لعبة جديدة عليهم، وعليه تجربتها، خطة كان يمكن لها أن تنجح بسهولة، لولا أن مجد بدوره يمتلك مميزات استراتيجية في هذه المعركة، هو أكثر تمرساً منهم بكثير في معارك المكاتب، وحناقات الشلل، أكبر منهم في السن، جسده الرياضي الممشوق، يجعله حر الحركة في أي مكان، تربطه علاقة عمل سابقة بحربية وصبحي وإبراهيم، والأهم طبعاً، بالأسطى ذات نفسه، وبجوار كل ذلك، كم هائل من الحكايات المثيرة مع فنانيين ولاعبين وراقصات، يكاد ينافس بها الأسطى بجلالة قدره، لولا أن حكاياته كانت صحيحة فعلاً، ومصورة في غالبها، بل، وتأمل، أخي المؤمن، كم العالم أؤضتين وصالة، يتقاطع بعضها بالفعل مع حكايات الأسطى، وليس أي تقاطع،

إحدى هذه التقاطعات تحدث مع حكاية سميحة نفسها. لكن، لكي يبدأ أمجد حكاياته ويخترق حصاره، ينبغي أن يجعلهم يستمعون من البداية، الأسطى قام عن طيب خاطر بهذه المهمة، بدأ يحكي عن الشاب الفرنسي الذي جاء مصر لا يعرف حتى القراءة بالعربية، وعمل كجامع للقمامة بإحدى المناطق القريبة من بيته، والقصة الملحمية للصعود الطبقي لهذا الشاب، بمساعدة الأسطى بالطبع، في منتصف الحكاية دعا مجد للتدخل، قائلاً له "ماتيو زباله ماتنا عارفه يا أستاذ مجد"، فالتقط مجد الحبل ببراعة.

٥٤

لو كان المكتب مسلسل تليفزيوني كما تقول رقية، لكانت قصة الحب الممتدة والكوميديا والملية بالغرائب والتطورات فيه قصة منال والأسطى. منال هي الوريث الشرعي لمكانة أمنية وأماني في حياة محمد. وبشكل عام يمكننا القول أن هناك نوعين من الأشخاص في العالم، يمكن معرفتهم من خلال تعاملهم مع التفاصيل الصغيرة، البعض يتجاوز التفاصيل ويهتم بالصورة الكبرى، والبعض يمتلك الحماسة الكافية ليدخل معارك على كافة جبهات التفاصيل، منال من النوع الثاني. تعيد طلباتها من المطاعم دائماً لأخطاء بسيطة، أحياناً يكون الطعام غير ساخن كفاية، أحياناً نسوا أن يضعوا الملاحق، دائماً تتحدث في التليفون، تشكو شيئاً ما لشخص ما، ولأن الأسطى هو مسئول المطبخ، فقد أصبح خصمها المثالي الدائم، القهوة باردة، الكباية غير مغسولة كفاية، المطبخ غير نظيف، لم يصرح الأسطى بحبه طبعاً، ولكنه كان يصطنع الخطأ تلو الآخر، لتحدث المعركة مع منال، كان متعارفاً مبهرًا يعرف كيف يخلق معركة مثالية، كبيرة كفاية لتخلق

بدورها حميمية تجمعهما، حتى لو كانت حميمية كارهة، وليست كبيرة كفاية لتصنع كراهية حقيقية، فقط كراهية وغضب خجولين يمكن هزيمتهم كل يوم، لكن، وكما قلنا، حتى أكثر الأشخاص مهارة يخطئون أحياناً، وأحياناً يكلفهم خطأهم ذلك كل شيء.

٥٥

جاءت فكرة التطبيق في أحد اجتماعاتهم لسرد أحلامهم، حكى ندى أنها حلمت أن المترو الذي تركبه كان يسير في البحر وليس تحت الأرض، وأن أغلب من فيهم، كانوا أسماكاً عاقلة، ذاهبة إلى عملها أو عائدة منه، بعض الأسماك منهكة، بعضها الآخر الأكثر شباباً يقف في جماعات، ويحاول نيل الإعجاب، حينها حكى منير أنه أيضاً حلم ذات مرة بأنه في استاد كرة قدم وأن اللاعبين كانوا أسماكاً، وأنه يذكر جيداً أن حلمي، أحد أصدقاء طفولته، قال له غاضباً ”أسماك البلطي كلها مالهاش في الكورة“، قفزت الفكرة إلى ذهن نجم، وقبل أن تختمر، اقترح أن يصنعوا تطبيقاً يكون عبارة عن موسوعة للأحلام، كل شخص يكتب حلمه، وتكون هناك تصنيفات للأحلام، أحلام في البحر، في السماء، في الماضي، في المستقبل، أحلام حيوانات، التقط محمد الخيط واقترح أن يكون التطبيق به آلية لجمع الأحلام إلى بعضها، وينشئ من المتشابه منها عالم كامل، وكل حلم يضيف تفصيلاً جديدة لهذا العالم، وبهذه الطريقة يكون لدى العالم وسيلة ليحكم أخيراً، إذا كانت الأحلام جزءاً من عالم كامل آخر أم لا، ويكون بوسع كل فرد أن يتتبع حلمه في هذه العوالم، ولعله يكتشف أن شخصاً آخر في العالم كان في نفس الحلم فعلاً، واقترح أن يكون الإسم ”عالم الأحلام“، رد يحيى ”أو بحلم بيك“، تدخل جمال تدخله المثقف المعتاد ”بالأمس حلمت بك“، عشرات الاقتراحات تتقاذف في الغرفة، حتى قال حربية بصوته

الهادئ الواثق ”حلمي حلمك“، وبدأت المغامرة.

٥٦

بعض الشركات تنجح لأن المسئولين عنها موهوبين جدًا ومليئين بالأفكار الجيدة، بعضها تنجح لأنهم إداريين ماهرين لديهم خطط واضحة واستراتيجيات تطور عملوها عليها كفاية ويتركون عملية الإبداع لمن هم أكثر منهم موهبة، بعضها، في حالة شركة ”٤٤، المعادي، الدور السابع“، وهو الإسم الكامل والرسمي والحقيقي، والذي لا يصدقه أحد، للشركة، ينجح بدعاء الوالدين، ولأن الرزق يعطيه الله لمن يشاء.

تحمس حسن وقاسم، مؤسسي الشركة، لفكرة التطبيق، وبشكل فوري، اتصلوا بأحد أصدقائهم الذي يدير شركة برمجة، لبيعت خمسة مبرمجين من عنده ليشاركوا في المشروع، وكان هذا أحد أسعد أيام الشركة، فالخمسة كانوا إناثًا، رزان ونهى وولاء وجنى وماهينور، وعالجوا إذن ”عدم التوازن الجندري“ في المكتب، وهو عدم توازن غير موثر لأن الصدفة ان جميع من المكتب عدا ثلاثة أو اربع أشخاص متزوجون أو في علاقات طويلة مستقرة، وبالطبع خلقت البطلات الخمس الجدد بيئة خصبة للمزيد من حلقات المسلسل.

في اليوم الأول لقدومهن، أو ”يوم المرأة العالمي“ كما اقترح شرييني، اختفى الميكرويف من المطبخ. اكتشف الأسطى هذا في اليوم التالي ليوم المرأة، وكمدنين للاجتماعات، اجتمعوا كلهم لمناقشة الحدث، تحدث الأسطى، وقبل أن يكمل قصته، وبعض القصص تنتهي أسرع من المتوقع، قال عادل ”اه الميكرويف أنا اديته لولاء“. أعجب عادل بولاء، وفيما يقفان في المطبخ قالت أن الميكرويف يسهل كل شئ،

وأنها تتمنى أن يكون عندها واحد، فتح عادل درجًا ما من المطبخ، أخرج كرتونة، شد فيشة الميكرويف من الكهرباء، وحمله ووضعه في الكرتونة، وقال لها ” خديه هدية“، والأغرب أنها فعلت ذلك فعلاً، لكن الأكثر غرابة هو ما ستفعله نهى.

٥٧

لنكن موضوعيين، ما فعله عادل كان غريبًا في درجته وليس في نوعه. فإحساس ”امتلاك المكان“ الذي قال حسن وقاسم دوّمًا أنهم يحبون أن يسود المكان، كان طاغيًا دائمًا، وناجحًا أكثر مما توقع المنشئ. محمد مثلًا أعطى غادة ماكينة القهوة الفرنسية، عندما أخبرته أنها تصنع قهوة ممتازة، والأسطى أعطى منال سخان الشاي عندما أخبرته بأنها كلما اشترت واحدًا لبيته يتعطل في اليوم التالي، ورقية أعطت زوجها بلال كرسياً من المكتب لكي لا يعمل في البيت من السرير، ومنير أخذ مروحة أرضية في بيته، وكل من في المكتب تقريبًا أعطى نسخة من مفاتيح المكتب لشركاء حياتهم، حتى أن جمال، قبل أن تحدث موقعة المفاتيح، طرح نظرية تقول أن احتمال أن يمتلك أي شخص عشوائيًا في القاهرة نسخة من مفاتيح المكتب، أكثر من واحد من كل ألف، وأن أي شخص يحمل أكثر من عشرة مفاتيح معه، فاحتمال واحد في المائة أن يكون مفتاح مكتبهم موجودًا فيهم.

عادل أحد القلائل ”السنجل“ في المكتب، ولهذا تزعمت رقية لجنة لمحاولة الوصل بينه وبين ولاء، ضمت في عضويتها أسامة وندى. وفي اليوم التالي ليوم المرأة، اختفى جهاز التلفزيون.

٥٨

مع قدوم شلة المبرمجات، أضيف للاجتماعات العشوائية في

المكتب، اجتماع عصف ذهني ثابت للتفكير في تطبيق “حلمي حلمك”، كل يحكي حلمه في البداية ثم يناقشون أفكار تطوير التطبيق. اقترح محمد أن يضيفوا على تجميع الأحلام في عوالم، رسومات توضيحية لكل عالم منها، اسكتش بسيط لكل حلم، ثم يجمعون هذه الاسكتشات، اعترض أنور لصعوبة رسم كل هذه الأحلام، واقترح بدلاً من ذلك أن يضيفوا خاصية اختيارية ليرسم كل فرد يكتب حلمه اسكتش بسيط للحلم، وفي المراحل المتطورة من التطبيق ربما يمكن حينها رسم شيء مجمع للأحلام القريبة من بعضها، ثم للعوالم القريبة من بعضها، حتى يصبح في وقت مما خلق عوالم الأحلام الكاملة.

تاريخياً، تنتهي اجتماعات المكتب غالباً بتفرعها إلى نقاشات جانبية واسعة يدرك الجميع بمرور الوقت أنها تعني انتهاء الاجتماع، دون أن يوقف ذلك أي من النقاشات الجانبية، فقط يخرج البعض من الغرفة أو وبالوقت ينتهي ”شكل الاجتماع“ بعدما انتهى جوهره من فترة.

النقاشات الجانبية نفسها كانت تتفرع دائماً بنفس الشكل، محمد يحدث ندى عن أخبارها، أسامة يتحدث إلى رقية عن أخبار النميمة في المكتب، حربية يناقش جمال في خبر عملي ما، شربيني يدخل في تحدي شتائم مع يحيى، والأكثر سخونة، منال تتعصب على الأسطى في أي شيء. هذا كله اختلف منذ ”يوم المرأة“.

هناك بعض الأشخاص يمتلكون القدرة على أن يصبحوا ”زعماء القعدة“ بمهارتهم في الحكي وقدرتهم المميزة على مقاطعة من يقاطعهم بسلاسة وعدم ترك حبل الكلام يفلت منهم بسهولة، وفي مرحلة ما قبل استقرار ”الشلل“، يحدث صراع بين شخصين أو أكثر على زعامة القعدة، يشد كل منها الحبل بكل قوته، يقاطعان بعضهما،

يحاول كل منها أن تبدو حكايته أذكى أو أكثر إثارة، وتحدث تلك المعركة الصاخبة دون إعلان، وأحياناً حتى دون إدراك للمتعاركين داخلها بأنها تحدث، بالوقت يترك أحدهما الحبل للآخر، يكتفي بمقاطعته بين الحين والآخر، يحكي حكايته قبل أن يأتي الزعيم أو بعد أن يرحل. الأكثر مثابرة من المهزومين

يخلق نقاشاً فرعياً يكون هو زعيمه، والنقاشات الفرعية نفسها لها ثلاث أنواع، الأول وهو التفرع العادي كما يحدث في الاجتماعات، الثاني مثابرة المهزومين، النوع الثالث هو ما تصنعه نهى.

٥٩

النساء الخمسة أتوا محملين بقصص أخرى عن مكتبهم الأصلي، لديهم دائماً مقارنات بين كل شيء هنا وهناك، أبطال آخرون، وملاحم أخرى، يشبهون عادل هنا بوليد هناك، ومحمد هنا بجلال هناك، ومنال بهاجر، ولديهم، كالجميع، أسطورتهم الخاصة، مهاب الحمش.

مهاب الحمش، وهو بالمناسبة، خطيب نهى، للمصادفة أيضاً، هو زميل محمد في الكلية، أصغر منه بدفعة، لم يكن بعيداً عنه جداً، وإن لم تجئ فرصة مناسبة لحكايته، كان أحد أعضاء شلة ميكانيكا، التربو وشاكوش ومسمار، رغم أنه من قسم اتصالات، وأصغر منهم، لكنه كان يسارياً متحمساً، وهو من رسم بعض لوحات المعرض الفني الذي وضع فيه الترولي رحمه الله صورته بالأبيض والأسود كأحد زعماء الثورة الروسية. يذكر محمد أنه في الكلية كان الحمش يخوض نقاشات طويلة جداً مع نظرية، فالحمش وقتها كان متحمساً أيضاً للعلم كراية للتقدم، أو ما نطلق عليه تنويري، ونظرية كان ممن يميلون لرؤية تلك الحماسة للعلم، أحد مخلفات القرن التاسع عشر،

التي يجب تجاوزها. لكن الحق أن حماسة الحمش، لم تكن من بقايا القرن التاسع عشر، كانت من بقايا حماسة مغامراته في الثانوي، وهي مغامرات تحتاج لقعدة طويلة أخرى، المهم أن الحمش، ويشبه نظرية في ذلك، حصل على لقبه "الحمش"، في معركة "المليحة"، واستمر لقبه في الجامعة، ثم في عمله، ولذلك عندما رآه محمد للمرة في المكتب وهو يزور نهى، تعجب كيف تمكن من إعادة إنتاج حماسته للدرجة التي تجعله الآن بنفس درجة حماسته في الكلية، وإن كانت حماسته الحالية مرتبطة بمعارضه الفنية التي يقيمها في الشارع ويسميها "أهو"، وب"نهى" طبعًا، والأهم ، بعد إذن نهى وبعد الاعتذار إليها، برنامج على اليوتيوب "على بالي"، وهو برنامج يومي، من عشرين دقيقة، يتكلم فيه الحمش بشكل عشوائي عن أي شيء يقترحه عليه الجمهور، ويتوقف عن الكلام فجأة بعد عشرين دقيقة بالثانية. الحمش أحد هؤلاء الأشخاص الذين يفعلون الأشياء في أوقاتها الصحيحة، ولأنه لا يزيّف حماسته، فلا يمكن اتهامه بأنه يجري وراء الشهرة، مرن ومتعدد الاهتمامات ويقفز من هوية إلى أخرى كأنه يلعب في حوش روضة أطفال، ينجح في كل شيء يفعله، لكنه لا يكمل مساره فيه، متواضع، وذكي، ومرح، ويستحيل تقريبًا، أن تتوقع أي غابة تختفي خلف هذه الواحة المرحة من الحياة، لن تتوقع، لكن نهى ستحكي يومًا كل شيء.

٦٠

كيف يمكن لحكاية أن تنتهي؟ الحكايات الحقيقية، غالبًا لا تنتهي، أي لا ينتهي أبطالها للأبد، لكنهم يتشعبون في طرق مختلفة، فيصبح من العسير إكمال حكاياتهم كحكاية واحدة، ولحكاية حكايتهم

نفسها، ينبغي افتراض نقطة التشعب هذه. هل انتهت حكاية الترولي رحمة الله بوفاته؟ لو كانت الحكاية هي البطل وليس الترولي فهي لم تنته، ما انتهى هو دور الترولي فيها. حياتنا كلها عبارة عن تدخل في حكاية طويلة، لم تبدأ من عندنا، ولا تنتهي إلينا، في سباق التابع الطويل هذا نأخذ الراية ونجري بها قليلاً ثم نسلمها لآخرين ليفعلوا الدور نفسه، وبهذا المعنى فكل حكاية تبدأ دائماً في منتصفها، وتنتهي في منتصفها، بسبب التمدد اللانهائي لأطرافها. لم نعرف إلا منتصف حكاية أمنية، ونتاجاً من حكايات أماني، الكثير من حكايات الأساطير التي تشبه حكايات الترولي في كونها تغفل ما هو أكثر جوهرية، من سيحكي مغامرات التعلب التي لم يحكيها؟

قبل أن يكون حسين قائداً للمدرسة، كان قبله محمد متولي، وقبله سمر وعشرات القادة الآخرين، وقبلهم طلاب يذهبون لمدارس في مدن مجاورة، ثم أجيال لم تكن المدرسة أصلاً أحد أساسيات حياتها، بل الحقل، وقبل الحقل، ربما كانت هجرة من مكان لآخر. في القرية عائلات كثيرة ألقابها تشير إلى أماكن أخرى، المنيأوي والمنوفي والأجاوي والبحيري والسوهاجي، وغالباً وقبل أن يأتوا لهذا المكان، كانت ألقابهم هناك، بدورها، تشير إلى أماكن ثالثة، في كل مكان كانوا غرباء، قطوا رحالهم للتو، وتوجب عليهم أن يعلنوا انتمائهم لشيء ثابت، وبتعاقب الترحال، تتعاقب الانتماءات وتتغير، ويمرور عدة أجيال، ينسى الأصل الأول، وربما لهذا كان العرب مغرمين بحفظ الأنساب، كأنهم يتحدون سيولة الزمن، لكن حتى هم كانوا يجدون حدوداً لقدرتهم على تتبع الأنساب، يقف يقينهم عند نقطة فيفترون ما بعدها، لكن النسب اليقيني يظل ثابتاً، كلنا لآدم، وآدم من تراب، كما قال الرسول في خطبة الوداع.

أنت ندى أخيراً إلى المقهى، ابتسمت غادة، احتضنتها بجناحيها، شعرت بالغرابة، لكن كتمت شعورها وجلست، خلعت ندى معطفها، علقتة على الكرسي، ارتبك محمد، واندهشت غادة، وجلست غادة على مقعدها بينهما، ثم فردت جناحيها على الطاولة، وضحكت: مش هتصدقوا اللي حصل؟

يُتبع...